كان كوفى أميرًا، فأصبح

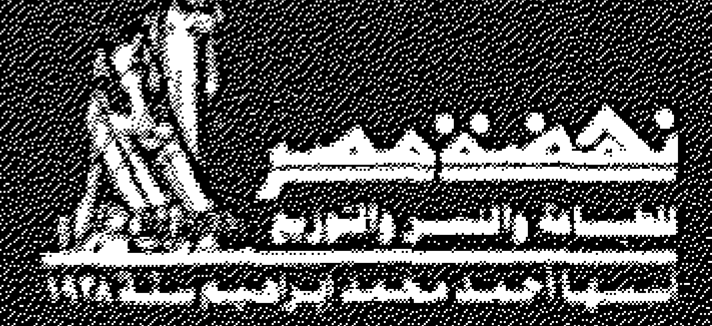
الأسير

Kofi Was a Prince, Now he is ...

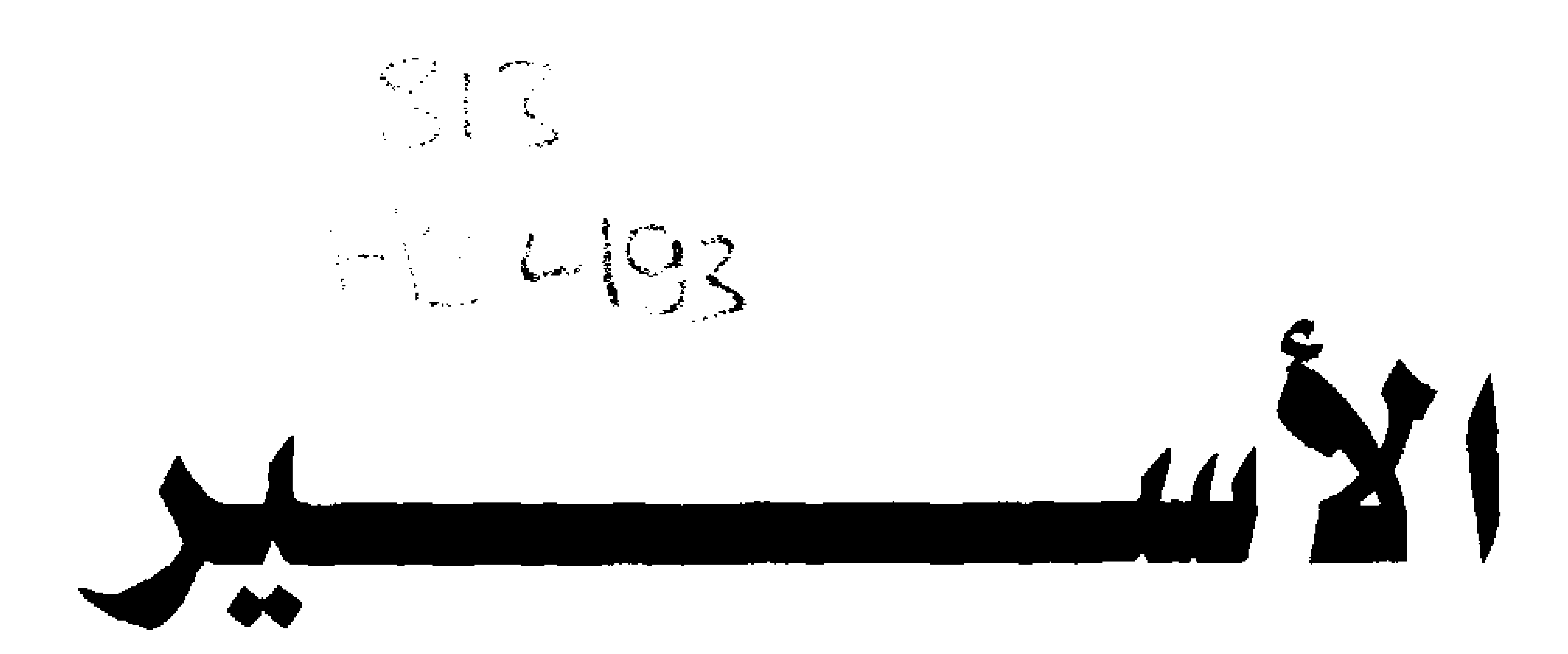
THE CAPTIVE

تأليف: جويس هانسن

JOYCE HANSEN



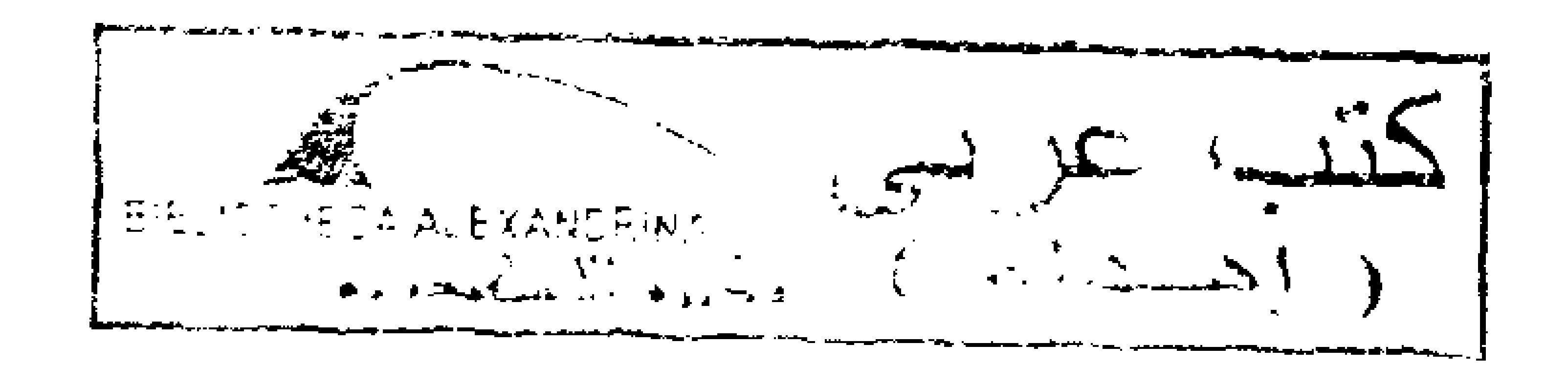




الأسير



تأليف: جويس مانسن




نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

تأليف : جويس هانسن

ترجمة : د. سومية مظلوم

إشراف : داليا محمد إبراهيم

Original English title : The Captive

Published by arrangement with Scholastic Inc., 557 Broadway, New York, NY 10012, U.S.A.

ترجمة كتاب The Captive تصدرها شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
بترخيص من Scholastic Inc., U.S.A.

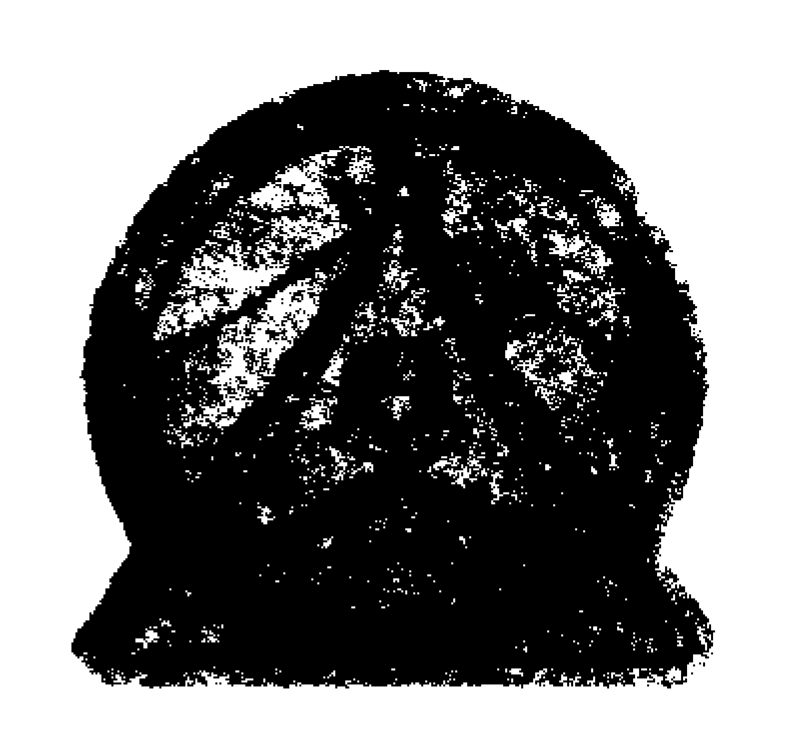
الترقيم الدولي: 2-2541-14-977 رقم الإيداع: 2003/20695 تاريخ النشر: يناير 2004


الإدارة العامة:
21 ش أحمد عرابي - المهندسين ص.ب: 21 إمبابة ت: 3466434 - 3472864 فاكس: 02/3462576
المركز الرئيسي:
80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة 6 أكتوبر ت: 8330287 - 8330289 فاكس: 02/8330296
مركز التوزيع:
18 ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة ت: 5909827 - 5908895 - 5898085 فاكس: 02/5903395
فرع الإسكندرية: 408 طريق الحرية - رشدي ت: 5230569(03)
www.nahdetmisr.com publishing@nahdetmisr.com



اهداءات ٢٠٠٤
أستاذ/ محمود رمضان عبدالعظيم
الإسكندرية

جائزة نيوبرى



تقدم هذه الجائزة كل عام لأفضل كاتب للشباب فى الولايات المتحدة الأمريكية.. والكاتب الذى يحصل عليها، يحجز لنفسه مكانا فى قائمة أعظم الكتاب.. فهى أكبر وأقدم جائزة فى الولايات المتحدة..

وقد بدأ تقديمها عام 1922 عندما اقترح فريدريك ميرشل على اتحاد المكتبات الأمريكية إنشاء هذه الجائزة، على أن تقدم باسم چون بيرى. وهو أقدم بائع لكتب الأطفال فى القرن الثامن عشر فى إنجلترا..

يهدف الاتحاد من تقديم الجائزة إلى تشجيع الابتكار والأفكار الخلاقة فى حقل الكتابة للشباب، سواء أكان شعرًا أم رواية أم مسرحية.. كما حدد لها شروطًا كثيرة منها: أن يكون العمل منشورًا فى نفس العام، ولم يسبق نشره، كما أن الكاتب يجب أن يكون مواطنًا أمريكيًا..

ويفوز الكاتب بميدالية برونزية. صممها بول تشامبلان، محفور على وجهها اسم الكاتب، وتاريخ الفوز بها.

وفى عام 1973 اقترح فريدريك . ج. ميلشمر تقديم جائزة لأحسن تصميم أو رسم كتاب للشباب باسم الرسام الإنجليزى «راندولف كالديكوت» تخليدًا لذكراه ..

بعض الكتب الحائزة على جائزة نيوبِرى

1 ـ صيف البجع.

2 ـ معجزات فوق التل.

3 ـ ساوندر.

4 ـ البُعد الخامس.

5 ـ الأسير.

6 ـ راسكال.

7 ـ الحصان المعجزة .

قصص أخرى للشباب

1 ـ الأخوان رايت

2 ـ الأعظم.. محمد على

3 ـ الضحية

المحتويـــات

مقدمة

سيراليون «غرب إفريقيا»

مارس «آذار» 1811

اسمى كوفى كوامى بول وأنا المساعد الأول فى سفينة «المسافر» ، كوفى هو الاسم الذى سمتنى به عائلتى ، لأنى ولدت يوم جمعة . الاسمان الآخران سميتهما لنفسى - كوامى على اسم والدى الحقيقى ، وبول على اسم الرجل الذى وهبنى حياة ثانية ، وهو قبطان «المسافر» بول كاف .

وبينما أنظر على الرمال الداكنة لشواطئ سيراليون ، المستعمرة البريطانية فى أفريقيا ، لم أستطع أن أمنع نفسى من تذكر الظروف غير العادية من حياتى التى أخذتنى بعيدًا عن قريتى الإفريقية إلى قرية فى «نيو إنجلاند» ثم أعادتنى ثانية إلى إفريقيا .

مرة أخرى سأشعر بالشمس ، أستنشق هواء القارة التى ولدت فيها . هكذا تجذبنى ذكريات إفريقيا للماضى بينما سفينة «المسافر» تبحر للأمام .

الفصل الأول

رحلة إلى كوماسى

مملكة أشانتى

غرب إفريقيا

1788

كان عمرى اثنى عشر ربيعًا عندما تغيرت حياتى للأبد . كانت عشيرتنا بأكملها ذاهبة إلى كوماسى للاحتفال السنوى لتكريم الملوك الأشانتيين فى الماضى والحاضر ، والذى يعتبر أحد أهم احتفالاتنا .

وقد قطعت الزوجات ، والأطفال والأعمام والعمات وكبار عشيرتنا الرحلة لمدينة كوماسى . وسافر أيضًا معنا العديد من العائلات ، أكثر من مائة شخص من قريتى . كنا جميعًا جزءاً من مملكة أشانتى العظيمة .

كنت الأصغر من بين خمس أخوات من أبى وأمى . فقد كان لأبى كوامي زوجات أخريات وأبناء ، لأنه كان زعيمًا كبيرًا ولكن أمى كانت تقول لنا دائمًا إننا «كويسى» و«مانو» و«إنتيم» و«افوا» وأنا كنا المفضلين لديه .

كنت أضحك وألعب مع أصدقائى وأبناء عمومتى ونحن نسير عبر طريق ضيق محاط بإطار من الأغصان العريضة لأشجار الأرز تشكل سقفا ورقيًا أخضر . وكان بصيص من شعاع الشمس ينير طريقنا .

اسكتنى والدى بصوته الأجش «كوفى! أنت تتباطأ وتمزح كما لو كنا فى أمان فى بيوتنا . هيا أسرع» .

أخذت أسرع خلفه ، ماذا يهم أننا لسنا بالبيت؟ وطالما أن أبى وإخوتى هناك ، فنحن جميعًا آمنون .

جرى الأطفال الآخرون ثانية إلى أسرهم ورفعت رأسى لأعلى بفخر وكأنى أصبحت زعيمًا شهيرًا مثل كوامى . وكنت أعلم أنى سأصبح زعيمًا عظيمًا يومًا ما ، ولكن فى تلك اللحظة كنت فقط أريد أن أصارع وأرمى الرمح وأسابق أصدقائى .

قال مانو أخى الأكبر «ينبغى أن تكون مع والدتك والنساء والأولاد الآخرين» فشعرت بالغيظ . لو لم يكن أبى وأخواى الآخران إنتيم وكويسى هناك ، لما سمحت لمانو أن يتحدث إلىَّ بتلك الطريقة . فأنا لم أعد طفلاً ، بل كنت كبيرًا بما يكفى لأحمل كرسى أبى عندما قدمنا أنفسنا للملك .

كنت أحمل كرسى أبى وكان ذلك سببًا لسعادتى . فكل زعيم ذو نفوذ يكون له كرسى يرمز لنفوذه وسلطته . ويكون من الشرف حمله . وأنا ، كوفى ، أصغر أبناء أبى ، أعطونى ذلك الشرف . لقد وضعت على وجهى قناع الجدية وحاولت أن أركز فقط على حديث أبى وإخوتى ، ولكن كالعادة كانوا يتحدثون فى التجارة والأجانب من الجانب الآخر من المحيط .

قال مانو : «لقد أصبح الفانتيون أقوياء تحت حكم البريطانيين» .

فأجاب أبى : «لن يكونوا أبدًا فى مثل قوتنا» وقد أغلق عينيه مثلما يفعل عادة ، و هو يفكر بعمق فى الأشياء . وضيَّق إنتيم عينيه السوداوين وتمتم وهو يخطو حول زند خشب ساقط : «كل هذا الخطف والعبودية غير القانونية» .

قال كويسى : «الناس يشنون الحرب ليأخذوا عبيدًا لمجرد أن يبيعوهم للرجال البيض . وهناك قوافل ترحل إلى الساحل كل يوم» . كانت خطوط القلق العميق تجَعِّد جبهته ، المشكلة دائمًا تأتى من الشاطئ فالتجار البيض يريدون المزيد والمزيد من العبيد ، والزعماء والملوك يريدون المزيد والمزيد من البنادق!! أبطأ خطوته ونظر على التربة الحمراء وقال : «يوما ما سيؤخذ أولاد الملوك ورؤساء القبائل» .

ابتسم مانو : «كويسى أنت كمن يشعر بالنسيم ويظن أنه العاصفة . لن تصل الأمور إلى ذلك أبدًا» .

كان صعبًا علىّ أن أسمع حديثهما وسط تلك البهجة . ولما رأيت عصفورًا ذا ريش أصفر لامع يغرد بجناحيه ويشقشق خلال حائط الأوراق الأخضر ، تمنيت أن أصرخ وأرفرف فوق رءوس الجميع مثله . لم يكن هذا وقت التحدث عن الخطف والأحزان الأخرى .

حثت النساء الأطفال الآخرين بعصبية ليسرعوا ولا يسيروا بعيدًا ، وأنا أيضًا بدأت أشعر بالتوتر ، هل نحن فى خطر فعلا؟ من سيجرؤ أن يؤذينا؟ لماذا كان علينا أن نسرع؟ كان أمامنا يوم كامل حتى نصل إلى كوماسى . من الطبيعى أن يكون هناك وقت كاف لنتوقف ونستريح أكثر ونشاهد الطيور وهى ترقص من شجرة لأخرى . فقط الرضع كانوا يبدون هادئين ينامون على ظهور أمهاتهم .

استمر إخوتى وأبى يتحدثون ، ومن خلفى جاء صوت أختى ، أفوا ، يعلو فوق أحاديث أمى والنساء الأخريات ، فسوف تتزوج عندما نعود إلى بيتنا . كنت أعرف أنها تتحدث عن احتفال زواجها القريب . لأنها الفترة الأخيرة لم تكن تتحدث عن شىء آخر .

ظلّلت عينى من وهج الشمس عندما دخلنا أرضًا مقطوعة الشجر ورأيت أوپونج ، فارع الطول ومنتصبًا ، وهو يحمل متعلقات أبى . كنت أفضل أن أكون معه على الاستماع إلى حديث إخوتى . إذا كان هناك أحد يعرف ماذا يحدث فسوف يكون أوپونج ، عبد والدي ؛ فهو يعيش معنا حتى من قبل أن أولد وهو عضو من عائلتنا وسمح له أبى أن يتزوج أفوا .

كان أوپونج قد علمنى كيف أعزف على الناي وكيف أنْحتُ شكل رجل أو امرأة من كتلة خشبية . وقد علمنى لغة الطيور وكائنات حية أخرى . وعلمنى كيف أفهم الرسائل المتضمنة فى ألوان السماء والتربة ورائحة ولمسة النسيم .

جريت إليه وسألته : «لماذا أبى قلق هكذا؟ هل يمكن أن يهاجمنا أحد فى طريقنا إلى كوماسى؟» .

جفل أوپونج وكأنى كشفت عن سر «لا تقل كلامًا أحمق» وأشار لى بالابتعاد بضيق صدر قائلاً ، لن يجرؤ أحد على مهاجمة رجل قوى مثل والدك . إنه متلهف فقط للوصول إلى الاحتفال . أخرج الناي واعزف بعض الموسيقى لتشغل وقتك يا كوفى» .

كنت دائمًا أشعر أن أوپونج شخص مطمئن ، فلماذا بدا منزعجًا؟ كان يجب أن يكون سعيدًا ، فقد اقترب يوم احتفالنا الكبير ، وسرعان ما سيصبح عضوًا فى عشيرتنا .

مددت يدى فى الصرة الجلد وأخرجت الناي ، وسرعان ما نسيت تصرف أوپونج الغريب عندما شرعت فى العزف .

قال أوپونج : «الآن أنت تملك الوقت وتجعله يمر بسرعة أو ببطء كما تريد» . وكانت إيقاعاتى سريعة مثل حركة الطيور من غصن إلى آخر .

صاحت امرأة من قريتى : «آه ياكوفى لقد أحسن أوپونج تعليمك» ووافقتها جدتى .

وبدأت أفوا ترتجل كلمات لتتمشى مع النغمة التى أعزفها وأحسست وكأن كل من سمع عزفى قد شعر بالسعادة وأن الأمهات ما عدن ينادين على أطفالهن بعصبية .

مشينا طويلا وما أن بدأ الغسق يهبط حتى بدأت الغابة تتلاشى بالتدريج إلى حقول البطاطا المزروعة وقطعنا حوالى ميل آخر قبل أن نصل إلى ضواحى كوماسى .

وكانت الجدران الحمراء لمجمع مبانى الضيوف - الذى سنقيم فيه مبعثًا للراحة . وقد استقبلنا بعض سكان المدينة بالطعام .

بقينا خارج كوماسى خلال اليوم التالى ، حيث إنه كان يوم الجمعة ولم يكن من الممكن السفر فى اليوم السابق للاحتفال الذى كان مقررًا له يوم السبت . نحن الصغار كنا فى غاية الفرح وكنا نعطل الجميع عن أداء أعمالهم ، قررت أن أبحث عن أوپونج ، لأنى كنت أعرف أنه سيسعده أن يرانى .

سطعت الشمس المشرقة على جماعات من الرجال يصلحون المظلات التى تستخدم فى المناسبات - وهى كبيرة تكفى لتغطى العديد من الناس . وقامت الفتيات والشابات بتضفير وتزيين

شعورهن بالخرز والأصداف الصفراء ، وأخذت بعض النسوة يطعمن صغارهن ، والأخريات تدق الحبوب التى سيستخدمنها لعمل طعام الفوفو .

بحثت عن أوپونج بين جماعة من الشبان الذين فى مثل عمره الذين كانوا يصلحون المظلات .

سألتهم : «هل رأيتم أوپونج؟» .

أجابنى أحدهم : «كلا ، لم أره منذ الصباح الباكر اليوم» .

وتعجبت أين هو . كان ينبغى أن يكون مشغولاً من أجل الغد . فكرت أنه ربما كان مع والدى أو أحد إخوتى . وعندما فكرت فى أن أبحث عن والدى رأيت أوپونج يسير خلال بوابة مجمع البيوت . اندفعت نحوه أسأله : «أين كنت يا أوپونج؟» .

قال : «تعال ساعدنى فيما عندى من أشغال . هناك الكثير مما ينبغى عمله .» .

قلت : «أعرف» وكنت أهرول خلفه لأساير خطواته الكبيرة ، «وهذا هو سبب دهشتى لأنى لم أجدك» .

تجاهلنى «أوپونج» وسار بسرعة تجاه كوخ الضيوف الذى فيه والدى .

لم يكن كوامى هناك ولكنه كان مع الكبار والرؤساء الآخرين . كان ذلك أفضل أيضًا لأنه سيكون غاضبًا من «أوپونج» لغيابه طوال الصباح . كنت أشعر بالفضول وتمنيت لو كان قد أخذنى معه . «هل ذهبت إلى كوماسى؟ ماذا رأيت؟» .

فقال بعبوس : «هيا ، هيا لدينا أشياء كثيرة لنفعلها» .

وتعجبت ماذا كان الأمر مع صديقى الطيب . وبينما كان «أوپونج» يخيط قطعًا من مظلة والدى ، أخذت ألمع قوائم كرسى كوامى المنحوت من الخشب .

وفى المساء أخذنا نسمع جميعًا لأحد حكماء العشيرة يحكى تاريخ قبيلتنا . أغلق العجوز النحيف عينيه وهو يتحدث وكان مرتديًا ثوبًا أبيض . أول ملك لنا كان تشومينتوى وبعده كوبينا أمامفي . وكان لملكنا العظيم التالى أوتى أكنتين جيشًا من ستين ألف رجل شجاع للدفاع عن مملكتنا القوية . وأثناء حكم ملكنا التالى أوبيرى يبوامانو . . . «استرسل فى التفاصيل وأنا أستمع إليه باهتمام .» ظللت يقظًا حتى انتهى ، لأنى كنت أحب أن أسمع تاريخ عشيرتنا ، وتخيلت أننى يومًا ما يمكن أن أصبح ملكًا عظيمًا يجعل الحياة سعيدة لجميع رعاياه .

قبل أن أنام تلك الليلة ذكرنا الكاهن بقدسية احتفال اليوم التالى . سوف نسترضى أرواح ملوكنا الذين انتقلوا إلى العالم الآخر ، وسوف ندعو لتطهير أمتنا وندعو ألا يستحوذ علينا الشر وأن يأتى العام الجديد فى سلام» .

عندما رقدت على حصيرتى ، أدركت أن أوپونج لم يكن معنا أثناء حديث الحكيم ، ولكننى لم أعد أفكر فى غيابه حيث استغرقت فى نوم عميق وهادئ .

الفصل الثانى

الكرسى الذهبى

فى الصباح التالى بعد أن استحممت فى كوخ الاستحمام وأكلت إفطارًا مشبعًا فى العصيدة ، عدت إلى الكوخ الذى نمت فيه مع الأولاد الآخرين من جماعتنا . ارتديت الثوب الجديد الذى أعطاه لى والدى ، منسوجًا بنقوش من الأحمر الداكن ، والأزرق والأصفر . ومثل معظم الأولاد فى مثل سنى فأنا عادة أرتدى قماشًا أبيض بسيطًا حول النصف الأسفل من جسمى ولكن لأنى ابن زعيم كبير وعضو بعيد من العائلة الملكية ولأن هذه كانت مناسبة مهمة ، كنت أرتدى ثوبًا جديدًا .

كان الجميع يرتدون أثوابًا غير عادية ، ذات ألوان مشرقة من الأزرق والأصفر والأخضر والأبيض والبنفسجى والأحمر والبنى هكذا سار الجميع أمامى عندما تركت الكوخ وذهبت أبحث عن أمى التى كانت تجلس خارج مجمع بيوت الضيوف مع أختى «أفوا» .

استعرضت ثوبى أمامهما ، فقالت «أفوا» : «لقد فاق بريقك بريق الشمس يا كوفى» وكانت تلمس بأصابعها ذلك الجزء من الثوب الملقى على كتفى ، وكانت الأساور النحاسية التى تطوق رسغيها تشخشخ أثناء حركتها .

لمست أمى وجهى بيديها الناعمتين ، انظر يا بنى الوسيم «لقد أخذت العينين المستديرتين والوجه المستدير من والدك ومن جدك ،

وكذلك البشرة بلون الأرض البنية التى تنتج أفضل أنواع البطاطا» وألقت برأسها للخلف وكانت ضحكتها مشرقة كذلك القرط النحاسى الذى كان يتلألأ عاكسًا ضوء الشمس .

وبعد ذلك بحثت عن «أوبونج» لأريه ثوبى . لم أره بين جماعات الشبان وتذكرت أنه لم يكن معنا الليلة السابقة . وجذبت صرخة الصقر عينىَّ نحو هضبة صغيرة قريبة ترتفع قليلاً فوق الحقول . صحت : «أوبونج» ، عندما رأيته يسير نحوى . وظننت أننى رأيت عدة رجال ينسلون بسرعة إلى الغابة ، ولكننى لم أكن متأكدًا . ربما كان ضوء النهار وظلال الليل المتباطئة تخدعنى .

أسرعت إلى جانبه «رأيت بعض الناس يذهبون إلى الغابة . من هم؟ لماذا لا ترتدى الثوب الجديد الذى أعطته لك أفوا؟» .

قال لى آمرًا : «اصمت لابد أنك تخيلت أنك رأيت أحدًا ، مثلما حدث لى ، ولهذا فقد ذهبت لأستكشف . . ذهبت لأتحقق» . عدّل أوبونج سيفه وقال : «إذا كان أحد هناك ، فأنا لا أريد أن يرانى أحد ، من الصعب أن أختفى فى ثوب مشرق» . ابتسم «أوبونج» بإعجاب لى قائلاً : «أنت أمير بهى الطلعة» .

أخذت أدور وأهندم فى ثوبى حتى أوقفنى أوبونج ، وبينما مال قليلاً فى اتجاه الغابة . تصلب جسمه وأصبح ساكنًا وصامتًا كالصخرة .

همست بحدة : «إذا كنت تظن أنك رأيت شيئًا ، فلماذا لا تخبر الحراس؟» .

وضع «أوپونج» ذراعيه حول كتفى وقال «مازال هناك الكثير مما ينبغى أن تتعلمه . افترض أنهم يفوقوننا عددًا؟ لابد أن تتبين قوة عدوك ، بحيث تعرف ما إذا كنت ستهاجم أو تتراجع» .

سرنا ببطء نحو الجموع وكان البعض قد بدأ أخيرًا فى السير .

همست له وأنا أنظر للخلف إلى الغابة : «ظننت أننى رأيت شيئًا»

أدار «أوپونج» رأسى للأمام وقال : «لا تقلق ، تعال ياكوفى ، علىَّ أن أكمل تنظيف مظلة والدك وأساعده ليستعد للرحيل» .

جمعت الأمهات أطفالهن ، وأخذ الخدم كراسى ذوى النفوذ وبعناية أمسك الفتيان بالمظلات المغلقة التى ستستخدم فى الموكب إلى كوماسى .

سمعت والدى ينادينى من داخل الكوخ حيث كان ينام فأسرعت إليه . كان جالسا على حصيرة من جلد الماعز أشار لى لأجلس أمامه .

«كوفى ، أنت تبدو أمامى وكأنك والدى عاد لهذا العالم ثانية ، فوجهك مثل وجهه . أوشكت أن تصبح رجلاً ، وكما تعرف سيكون لك الشرف أن تحمل كرسىّ فى الموكب» . ومد يده إلى سلة صغيرة بجانبه «هذا من أجلك» وناولنى نايًا جديدًا منقوشًا بنفس نقوش كرسى والده وقال لى : «لقد صنع هذا واحد من أكبر النحاتين لدينا» .

حاولت بشدة ألا أعوى مثل الجرو وأنا أمر بأصابعى على الخشب المصقول الصلب وقلت : «سأبقيه دائمًا معى» .

«وهذه منحة أخرى ابتهاجا بهذا اليوم» وأعطانى تمثالاً ذهبيًا فى شكل ماعز ذى قرنين طويلين مائلين للخلف ، وأردف قائلاً . إن هذا المثال يسمى «لو كنت عرفت ما مر من خلفى» ، ولسوف يذكرك بأن الأسف على ما فات لا يجدى ، كما أنه رمز لليوم الذى ستستطيع فيه ارتداء الحلي الذهبية . وكان الصائغون والرجال العظماء فقط مثل والدى يُسمح لهم بارتداء الحلى الذهبية ، وضع أبى التمثال الذهبى داخل كيس صغير وربط الكيس حول رقبتى قائلاً : «احتفظ به مخبأ تحت ثوبك فهناك الكثير من الأوغاد هنا وهناك يسرقون بينما الجميع مشغولون بالاحتفال» .

تلعثمت قائلاً : «أشكرك يا والدى» مندهشا على العطايا الرائعة .

«ولا تتباهى على إخوتك وأختك» ففهمت من قوله هذا أنه لم يعطهم هدايا . كاد قلبى أن يطير من الفرح . ناولنى أبى كرسيه وبفخر خرجت فى الصباح المشرق مطمئنًا بمعرفتى أننى بالرغم من كونى الأصغر والأقل إلا أننى الابن المفضل لدى والدي .

كان أمامنا أقل من نصف ساعة سيرًا إلى المدينة وعندما دخلت كوماسى سمعنا الأصوات العميقة لطبول الماء . ونافست الأبواق والأجراس والطبول أصوات الرعد . وبدت مواكب الزعماء والنبلاء وزوجاتهم وأطفالهم وخدمهم ورعاياهم وعبيدهم تحت سقف هائل من العديد من المظلات المرفوعة فوق رءوس الزعماء وأصحاب المقامات الرفيعة .

كان الزعماء يجلسون فوق أكتاف خدمهم حتى يستطيعون التلويح للجموع المهللة . بينما كان حاملو المظلات يحركونها لأعلى ولأسفل حتى يحركوا النسيم ، وشقت المواكب العديدة طريقها للأمام لميدان كانون ، حيث سيقدم كل رؤساء القبائل والنبلاء للملك .

عزفت الآلات الموسيقية الوترية نغمات تحثنا على أن نغني حكايات أمتنا ، وتمنيت لو كان لي يدان أخريان حتى أستطيع أن أعزف على الناي الخاص بي وفي نفس الوقت أعرض كرسي أبي .

كان كوامي يلوح للجموع وهو جالس على أكتاف اثنين من الخدم ، وكان أوپونج وإخوتي يرفعون وينزلون المظلات فوق رأس أبي . كان خادم آخر يحملني على كتفه بينما كنت أحمل الكرسي لأعلى بقدر ما استطعت أن أمد ساعدي .

كان الأولاد الصغار يلوحون بالريش ويرقصون حول الزعماء . وكان القادة الذين ينتمون لكل زعيم يذكرون الأعمال العظيمة لزعيمهم . وعندما اقتربنا من ميدان كانون حيث سيستقبلنا الملك والملكة رأينا حشدًا من البشر ، وكان الجو معبأ برائحة الورود من الزيوت العطرية التي تعطَّر بها العديد من الرجال والنساء .

كانت الفتيات والنساء تتغنى وترقص مدحا للملكة وكان شعرهن المضفر يتلألأ بالخرز الملون والأصداف البيضاء والأواني الفضية التي حملنها على رءوسهن . كانت عمامات المسلمين

المشرقة ترتفع فوق الجموع كأنها مآذن بيضاء وهم يركبون بفخر خيولهم المتبخترة .

وكانت الأساور الذهبية التى ارتداها أحد الزعماء ثقيلة جدًا لدرجة أنه اضطر لإراحة ذراعه على رأس أحد الصبية . وقد تقدم وهم يعزفون ويرقصون كل موكب على حدة .

وعندما وصلنا فى النهاية إلى المنطقة حيث كان الملك والملكة يجلسان على كرسيين من خشب الأبنوس على منصة مرتفعة وسط ساحة كبيرة ، تطلعت عيناى كطفل شغوف للأمام ، تستوعب تفاصيل كل ما يحدث أمامى . توقفت أنفاسي وشعرت بالأسف لكل إنسان غاب عنى تلك اللحظة . ليتهم جاءوا جميعًا ليروا كم كانت الحياة رائعة! .

وبينما كان كل زعيم يدخل الساحة مع حاشيته وقائد جيشه مرددًا أعماله الشجاعة ، كان الزوجان الملكيان يومئان ويبتسمان .

وعندما جاء دورنا لتقديم أنفسنا ، حدقت فى الملك عن كثب ، وكان يجلس ساكنًا كأنه تمثال وأومأ فقط قليلا عندما أكمل قائد جيشه التحية .

وقف حامل الكرسى الملكى الرئيسى بجانب الملك يحمل الكرسى الذهبى - وهو أقدس موضع ورمز أمتنا . وكان خادمان يقفان على كلا الجانبين من الكرسى المرصع بالذهب وهما يحملان الأجراس الذهبية الضخمة المربوطة فى أطراف سير جلدى ، بينما حمل خدم آخرون مظلة الملك المصنوعة من وبر الجمل والصوف

فوق الكرسى . وفى أعلى المظلة التى يطلق عليها غطاء الشعب ، وضع بوق ذهبى شبيه ببوق الحرب .

بعد أن عبر والدى عن احترامه للملك وتعهد بولائه للشعب ، أخذ مكانه بين رؤساء القبائل الآخرين . وجلست أتيه فخرًا معه ومع أخى . ولأول مرة لم أعد أجلس مع النساء والأطفال على أطراف الساحة . جلسنا على يمين الملك والملكة . وكان الزعماء المهمون الآخرون يجلسون على اليسار فى حين جلس نافخو الأبواق وقارعو الطبول أمام الزوجين الملكيين .

لاحظت مجموعة من الرجال البيض مع مرشديهم من الفانتيين أيضًا يدخلون ميدان الاحتفال ليعبروا عن احترامهم للملك .

وتساءلت : هل كان هؤلاء الناس هم الذين يسببون المشكلات؟ لقد رأيت فى نفس الاحتفال العام السابق رجالاً بيضًا لأول مرة ، وكنت وقتها لم أزل غرًا حتى أعتاد على الفرق بيننا وبينهم

تخيلت أنهم يرتدون أقنعة ، وأن القناع أبيض تحته وجه أسود كمثلنا . لماذا لم يكونوا مرتدين أثوابًا ملونة مثلنا بدلا من أن يسجنوا أجسامهم فى بنطلونات ضيقة وأحذية ذات رقبة سوداء . وكان مرشدوهم السود يرتدون نفس الملابس التى تبدو غير مريحة . حيا الرجال البيض الملك وبعد ذلك جلسوا مع مرشديهم بينما بدأ قادة الجيوش مناقشاتهم لأمور الدولة . وحاولت أن أركز مثل الكبار ، وأسمع قادة الجيش الأشانتى يقولون إنهم مرة أخرى منعوا

البريطانيين من الوصول إلى الداخل . وصاح أحد القادة ، «لابد من أن يبقوا عند الساحل» .

حاولت أن أركز على المناقشة عندما دسست الناى تحت ثوبى ، ولكن عقلى أخذ يتجول . وأخذت أضرب قدمى بلطف مع الإيقاعات والنغمات المختلفة التى يعزفها الموسيقيون خارج الساحة وبدأت أشعر بالحنين للرقص والغناء فى الضواحى مع الأطفال الآخرين .

واستدرت قليلاً لأقول شيئًا لأوپونج ولكنه لم يكن هناك وهمست لكويسى أسأله : «أين أوپونج؟» ووضع أصابعه على شفتيه .

«استمع للحديث . . أنت الآن من الرجال» .

أخذت أتلفت حولى فى كل اتجاه وأنا أتنهد ورأيت أوپونج ، كان يبدو قلقا وخائفا وهو يشق طريقه وسط الجموع . وأمسك بذراع والدى عندما وصل إلينا .

همس بصوت أجش لكوامي «سيدى لابد أن نغادر المكان» ، وكانت عيناه تندفعان جيئة وذهابًا كأنهما طائران أسودان .

سأله والدى وهو يميل ناحيته : «ماذا حدث؟» .

«علمت أنه فى وقت متأخر من اليوم ، أثناء تقديم البطاطا الجديدة ، ستكون هناك مشكلات» .

«أى نوع من المشكلات؟» .

قاطعه كويسى «أين سمعت هذا يا أوپونج؟» وهو يحاول أن يبدو هادئًا .

«من الحارس الشخصى للزعيم كوبينا . هناك هجوم مخطط على كبار رؤساء القبائل يا سيدى ، وأنت واحد منهم» .

همس والدى بصوت أجش «من سيجرؤ على مهاجمتنا؟» .

وكانت عيناه المستديرتان الواسعتان تتفحص وجه أوپونج بتركيز ، أعلن أوپونج وهو يحول بصره عن تحديق أبى : مجموعة من ساكنى الساحل ، مع تجار الرقيق الأوربيين يا سيدى تخطط لهذا العمل حتى تضعف مملكتنا» . كان قلبى يدق بقوة مثل طبول الماء التى كانت تضرب خارج الساحة . لماذا يتعرض أبى لهذه المشكلة الآن؟

الفصل الثالث

خيانة

تدفق العرق على وجه أوپونج وأمسكت بشدة بكرسى كوامى ، آملا أن يكون «أوپونج» مخطئًا .

«لقد أقسم حارس كوبينا أن ما يقوله حقيقى هل ترى كوبينا؟ لقد ذهب وقد كان هنا عندما دخلنا ، سيكون أهلك فى أمان ، ولكن أنت يا سيدى . . . أخشى على حياتك» .

مر «أوپونج» بيده العريضة على جبهته : «دعنى آخذك لمكان تختبئ فيه آمنا ، وبعد ذلك يمكنك أن تبدأ العودة لأرضك قبل أن تنتهى الاحتفالات» .

وقف كويسى قائلاً : «إنه على حق يا ولدى فكوبينا كان هنا ولا أراه الآن . . ينبغى أن نغادر المكان» .

بدا مانو وإنتيم قلقين .

أصر كويسى : «ينبغى أن نغادر الآن» .

قال إنتيم بحزم : «ما قاله يمكن أن يكون حقيقيًا أو غير حقيقى ، ولكننا لا نستطيع أن نخاطر بسلامتك» .

كان صوت مانو يرتجف قليلاً ، ولكن قبضتيه كانتا مطبقتين بشدة . الأمور ليست مستقرة ، وقد سبق لى أن أخبرتكم بذلك أرخى والدى جفنيه مثلما يفعل دائمًا عندما يفكر بعمق .

قال «أويونج» وهو يمسح وجهه بعصبية : «إنه والدك فقط الذى فى خطر ولا أحد آخر . أعرف مكانًا «آمنا لاختبائه» .

كان هناك خطأ فظيع . فكرت كيف كان «أويونج» يتصرف بطريقة غريبة واسترحت عندما تحدث كويسى قائلاً : «هل تتوقع أن نترك والدنا يذهب بمفرده؟» .

«سوف تجلبون الشك على أنفسكم إذا تركتم المكان جميعكم . لا أحد آخر فى عائلتكم فى خطر» .

قال إنتيم : «سوف أعتنى أنا بالعائلة . أما أنتما يا مانو وكويسى فسوف تصطحبان الوالد» .

قلت لهم «وأنا أيضا سأذهب مع أبى» .

فقال إنتيم بعبوس : «أنت ستبقى معى» .

التفت «أويونج» لى : «ابق أنت مع إنتيم ستساعده فى رعاية الأسرة» .

هززت رأسى : «كلا ، أريد أن أذهب مع والدى» . هل كان والدى يعلم بتصرفات «أويونج» الغريبة؟ كنت أريد أن أخبرهم فعلا ، ولكن ماذا لو أنى اتهمت صديقى بالظنون خطأ .

«أرجوك يا والدى دعنى أذهب معك» .

مسح كوامى وجهى بيديه الخشنتين قائلاً : «ابق أنت وساعد أخاك فى رعاية أمك وباقى العائلة . أنت تحمل كرسيّى ولابد أن تبقى هنا لتمثلنى وتنهى مراسم الحفل» .

قلت بدون تفكير : «أويونج عنده أسرار : إنه يتصرف بطريقة غريبة» .

بدا «أويونج» مصدومًا ، ولكن إنتيم دفعنى غاضبًا فسقطت على الطاولة قبل أن يستطيع أويونج أن يدافع عن نفسه : «كيف تجرؤ أن تتكلم هكذا؟ أنت مجرد طفل» .

«ولكنك قلت إنى رجل!» .

التفت والدي إليَّ قائلاً «كوفى ، «أويونج» واحد منا . لا يجب أن تلقى الشبهات على شخص إلا إذا كنت تعرف ما تتحدث عنه» .

حدَّقت فى أويونج الذى اغرورقت عيناه بالدموع وكأنه يوشك أن يصرخ : «أيها السيد الصغير ، لا أظن أنك تقصد ما تقول ، فقد جعلك كل هذا الكلام مضطربًا» . وركع أمامى ومسح وجهى برفق قائلاً : «أنا أحب والدك كأنه والدي أنا فقط أحاول أن أحميه» .

شعرت بالخجل والارتباك ، ربما كان أويونج يحاول المساعدة . «أنت قلت لى هذا الصباح أن أحدًا لا يجرؤ أن يهاجم أبى» . أجهش أويونج قائلاً : «ولكن الأشياء تتغير . ألا ترى أن كوبينا ليس هنا؟ .

علق مانو وهو يجوب الساحة بعينيه قائلا : «ولكن الزعماء الآخرين هنا» .

كان كل إخوتى يتحدثون فى آن واحد . وفجأة وقف كوامى «لقد اتخذت قرارى . سوف أغادر المكان . هذا ليس وقت أخذ الشائعات باستخفاف» .

بدأ كويسى يعصر يديه «ينبغىَ أن نرجع الأوربيين للجانب الآخر من المياه ونسيطر على جميع ساكنى الساحل . هناك حروب

أكثر مما ينبغى» وهز رأسه قائلاً : «لقد ذهبت الحرب أبعد مما ينبغى» .

وضع إنتيم ذراعيه حول كتفى كويسى : «علينا أن نحمى والدنا الآن . ولسوف نناضل ضد البيض فيما بعد» .

قال كوامى : «إنتيم . . أنت وكوفى ابقيا مع باقى العائلة . سيأتى مانو وكويسى واثنان من الحراس معى وأوپونج . ووضع ذراعه حولى «عليك أن تبقى ياكوفى ، لأنك أنت حامل كرسىّ الرئيس . ومادمت هنا فأنا أيضا هنا» .

وافقوا جميعًا ونظرت بحزن بينما اوپونج قاد والدى وكويسى ، ومانو والحارسين بين الجموع . غاب كوامى عن بصرى ولكنى كنت أرى رأس «أوپونج» . شدت مراسم الاحتفال انتباه إنتيم ثانية ، ولكن كأنه كان مقضى الجبين وكنت أعرف أنه قلق هو أيضًا .

اختلجتنى مشاعر القلق عندما لمحت الزعيم كوبينا يدخل الساحة ، يتحدث ويضحك مع بعض الزعماء الأقل أهمية . ولم يبد لى أنه كان مختبئًا» .

أمسكت كتف إنتيم قائلا : «انظر هاهو كوبينا إنه ليس مختبئًا . لابد من أن أخبر والدى والباقين» .

ولكن قبل أن يستطيع إنتيم أن يوقفنى ، وضعت الكرسى بجواره على المنضدة وبسرعة شققت طريقى بصعوبة بين الرجال الجالسين . حاول إنتيم أن يشدنى للخلف ولكن قدمه تعثرت .

نظرت خلفى بسرعة وكان آخر مشهد رأيته حامل كرسى الملك يرفع الكرسى الذهبى فوق رأس الملك وكرسى والدي يسقط على الأرض .

أخذت أدفع بكل قوتى عبر الحائط الكبير من الناس ، وأخذت أعدو خارج الساحة وامتزجت بالجموع ، وسرت فى الاتجاه الذى يسيرون فيه وضربونى على رأسى عدة مرات لأنى كنت أدفع الناس من طريقى .

ولا شك أنهم سيستخدمون الشارع الكبير الوحيد الذى يقود من ميدان كانون إلى خارج المدينة مباشرة ، تحركت بأسرع ما أستطيع وراء الناس المتراصين مثل حزم العشب . وإذا برجل من المغرب يفرق الناس المحتشدة بحصانه يتقدم نحوى . وعندما قفزت من طريق الحصان ، رأيت رأس أويونج تختفى خلف جدار مجمع من البيوت .

أخذت أنادى : «أبى ، أويونج ، مانو انتظروا» ولكنهم لم يسمعونى من صوت الطبول والموسيقى .

كان مجمع البيوت صغيرًا على حافة الغابة بالضبط . وظننت لابد أن هذا هو مكان الاختباء . ولكنهم أسرعوا نحو الغابة بدلا من ذلك وتبعتهم ، وأنا ممسك بشدة بثوبى الفاخر حول ساقى حتى لا يتمزق أو يتسخ ، وصحت :كويسى ، ولكنهم مع ذلك لم يسمعوا صراخى الذى ذهب أدراج الرياح .

وفجأة ومثل سرب من الجراد ، هاجمهم مجموعة من الرجال . كان «أويونج» محقًا . وجرى الحارسان الجبانان كالأرانب وأخذ أبى

ومانو يقاتلان رجلين كانا يحاولان تقييدهما ، وكان رجل ثالث قد بطحه على الأرض ووكز قدمه فى ظهره . أخذت أصيح : «ساعدوهم! ساعدوهم!» ولكن عقد لسانى عندما رأيت واحدًا ـ من نفس الرجال البيض الذين كانوا فى الاحتفال ـ واقفًا بجوار أوپونج . هل ألقى هذا الرجل الأبيض الغريب بعض من السحر القوى على أوپونج فأصبح جبانًا مثل حارسي أبى؟

اندفعت بقوة نحو الرجل الذى يقاتل أبى وحاولت القفز على ظهره وأبعده عن كوامى . سمعت كويسى ينادينى بينما أسقطنى شخص على الأرض . طار الصندل من قدمى وأنا أحاول أن أمنع الضربات التى انهالت على رأسى وجسمى . وأخذت يد كبيرة خشنة تلوى ذراعىّ خلفى وبسرعة قيدت معصمىّ ورسغىّ فى قيود من الحديد .

وربط شخص آخر فمى بقطعة قماش كتمت صرخاتى وصياحى ، وسمعت طلقات ، ورأيت ذراعى والدى ترتفع للسماء وهو يسقط إلى الأرض حيث كان مانو مُلقى . أخذت ألوى رسغىّ وأنا أحاول أن أفك قيدى وأذهب إلى جانب كوامى . عندما قذفت جسمى من جانب إلى آخر ، رأيت جسد «كوام» الساكن ووجهه فى التراب . كانت آلامى من الضرب لا شىء بالمقارنة بالألم الذى اعتصر فؤادى فقد كان والدى ميتًا .

صرخ أوپونج بالأشانتية على الرجل الأبيض الذى كان يوجه البندقية الطويلة إليه . «لماذا أطلقت الرصاص عليه؟» . أشار المرشد

الفانتى للرجل لينزل العصى . «أنت سلمته لى كما اتفقنا . ماذا كنت تظن أننا سنفعل بهذا الزعيم العجوز؟ نبيعه؟» ومد يده داخل سرواله وناول أوپونج كيسًا .

أخذ أوپونج الكيس وبدون أن ينظر ثانية على كويسى وعلىّ واختفى خلف جذع شجرة أكاتا عريض . ومشى الرجل الأبيض والمرشدان الفانتيان أيضًا وساروا فى الاتجاه المعاكس وكأنهم ذاهبون ثانية إلى الاحتفال . وبقى رجلان معنا .

«قفا!» أمرنى أحدهما أنا وكويسى ، لم أستطع أن أكف عن الارتجاف والبكاء وأنا أنظر إلى الجسدين الساكنين لأبى وأخى . واستحوذ علىَّ الخوف والارتباك والكراهية مثل حيوان متوحش له مخالب حادة .

لقد كنت محقا فى شكى حول «أوپونج» . ولكن لماذا لم يستمع إلىّ أحد؟ كنت فقط أنظر إلى كويسى والأسئلة بعينىّ . لماذا؟ لماذا خاننا أوپونج؟

نظرت ثانية إلى جسدى كوامى ومانو ورددت الصلاة على روح الميتين . لم أستطع ترتيلها بصوت عالٍ ؛ لأن فمى كان مقيدًا . فرحت أرددها فقط بقلبى .

الفصل الرابع

فى الأسر

«تحركا!» أمرنا الرجلان ، وشعرت كأنى فقدت كل حواسى ، تعثرت كما لو كنت أعمى بجوار كويسى . لم أكن أسمع شيئًا ، أو أشعر بشىء أو أفكر فى شىء . فقدت كل إحساس بالوقت ولا أعرف كم مشينا . كان كوفى الحقيقى فى الاحتفال ممسكا بعرش والده ويعزف أغانى جميلة على الناى الجديد .

ووصلنا إلى جدران مجمع بيوت صغيرة وكنت بالكاد أستطيع الوقوف . وتصارعت المشاعر المكبوتة داخلى مثل عاصفة عنيفة وملأتنى بالغضب صورة أبى وأخى وهما مسجيان على أرض الغابة وأويونج يبتسم وهو ويأخذ النقود من مختطفينا .

وعندما دخلنا المجمع كانت هناك جماعات من الرجال والنساء أيديهم وأرجلهم مقيدة ويجلسون فى صمت على الأرض . وكانت هناك عدة منازل على شكل دائرة . لم تكن قرية حقيقية بها أطفال يلعبون أو بها رائحة البخار الحريف من مواقد الطهى العديدة . لم يكن هؤلاء رجال عائدون من مزارعهم . سجناء ذوو عيون خالية ورجال مسلحون .

وبالرغم من أن مُعتقلينا رجال سود ، إلا أنهم كانوا يرتدون نفس النوع من البنطال الضيق والأحذية السوداء ذات الرقبة التى رأيت

البيض يرتدونها ، دفعونا على الأرض مع الآخرين . وأزال رجل طويل نحيف ذو يدين ضخمتين القماش من على أفواهنا وحرر معصمينا .

وبعد ذلك أخذ أحد القيدين من قدمى وقيدنا معا ، وجاء رجل بدين قصير متهاديا إلينا .

«من أين أحضرت هذين؟ . . سأل وهو يفحصنى أنا «كويسى» بدقة . كنت أستطيع أن أجزم من الطريقة التى يتحدث بها إنه ليس أشانتيًا .

«ليس للغلام عائلة أو عشيرة تعتنى به والأكبر مجرم» .

قال أحد معتقلينا . كنت أعرف الخدعة التى يحاول أن يلعبها الرجلان . وطبقًا لقانوننا فإن المجرمين يمكن استعبادهم كعقاب على جرائمهم .

فصحت فى الرجل البدين : «إنه يكذب لقد أطلقوا النار على أبى وأخى . نحن ابنا الزعيم الكبير كوامى» .

حاول كويسى أن يسكتنى : «كوفى ، أرجوك» .

«وأمسكت! أنت طفل . كيف تجرؤ أن تتحدث لرجل هكذا؟!»

صرخ الرجل فىّ والتفت إلى الرجل البدين : «هذا الغلام وغد ياسيدى» .

قال كويسى بهدوء : «الغلام يقول الحقيقة . . نحن خُطفنا» ثار الكاذب فى وجه كويسى قائلاً : «أنت مجرم وإذا تكلم أى منكما سوف تقتلان» .

لوح الرجل البدين بيده على الرجل قائلاً : «من سيكون غبيًا هكذا ليقتل من يرغب الرجل الأبيض أن يدفع لنا ثمنه؟» ولمس طرف ثوبى ، «إنهما يرتديان أثوابًا ملكية» والتفت إلى الرجل الكاذب وقال : سأعطى لكل منكما جلد حيوان أو بندقية ثمنا لهما .

أهذا هو كل شىء؟

«إذا كانت قصتهما حقيقية وكان هذان هما ابنى الزعيم الكبير ، فإنك تكون قد بعت لى المشكلات . يمكن أن أعاقب على أنى مجرم ، هل أقايض الذهب والعاج والأسلحة الجيدة مقابل المشكلات؟» وأدار ظهره العريض لهما وألقى التوجا(*) على أحد كتفيه قائلا : «إما أن تقبل عرضى أو تحتفظ بعبيدك» .

ارتجفت شفتاى بينما تدفقت الدموع الغاضبة على وجهى . قال أخى الدمث : «لا تقل المزيد . هذان الرجلان غبيان مما يجعلهما خطيرين جدًا سيكون أفضل لنا أن يشترينا التاجر البدين ، أما الاثنان الآخران فإنهما مجرد وغدين معوزين تركا مزارعهما ليجمعا ثروة من هذه التجارة» .

بقيت ساكنا وتمنيت لو كان «كويسى» على حق . عاد خدم الرجل البدين بالبندقية ، وأثار مختطفونا جلبة .

قال البائع الكاذب : «هذه خردة ، شىء قديم ردىء» .

«لقد أتيتنى بقصة وضيعة» : حمل التاجر البندقية فى يديه الممدودتين . «هذا ما أحضره لكم الرجل الأبيض من بلده» . أخذ

(*) التوجا : ثوب رومانى فضفاض .

الرجلان البندقية وخرجا . وتهادى الرجل البدين بعيدًا ، وتركنا مع أناس آخرين .

التـفت إلـى «كـويسى» . أى مكـان هذا؟ ولماذا فـعل أوپونج هذا بنا؟ لماذا؟ أخـذت أنتـحب وأحـاول بلا فـائدة نزع القـيـد الحـديدى الذى يقيد رسغى ورسغ «كويسى» .

وضع كـويسى يدًا مـرتجـفـه على مـعـصـمـى . بدا صـوته ضـعـيـفًا وبعـيـدًا وقـال : «كـوفى ، أنا آسف . أنت حـاولت أن تحذرنا ، لو كنا فهمنا ولم نستمع لأوپونج واستمعنا لك أنت .

تذكـرت التـمـثـال الذهبى الذى على شكل الماعـز ذات القـرنين المنكوصين للخلف وهو التمثال الذى أعطاه لي والدى .

قلت وأنا أرتجف «نيم سا» : الندم لا يفيد . .

نظر إلـى كـويسى بدهشـة . «نعم أنت مـحق يا كـوفى . لا فـائدة من الأسف على مـا حـدث فـعـلاً . ونظر إلـى كـأنه يرانـى بنظرة جديدة فى بضع ساعات يا كوفى ، تغيرت من غلام إلى رجل» .

قلت لنفسى إن الرجل يجب ألا يعرف السعادة ؛ لأنى لن أكون سعيدًا ثانية أبدًا . وسألته مرة ثانية : «أى مكان هذا؟» .

«الرجـال والنسـاء يشـتـرون يُبـاعون هنا» . . كـان صوته المرتعد لا يكاد يكون مسموعًا .

«لماذا فـعل أوپونج هذا؟ فكان الوالد يعـامله كـإبنه . كـان يحب أوپونج» .

هز كويسى رأسه وغطى وجهه «كان أوپونج رضيعًا عندما أُحرقت قريته من قبل المغيرين من العبيد وقد وجده أبى فى أنقاض تلك القرية البعيدة - رضيعًا عاريًا يبكى - ولم يكن عنده أى فكرة عن عائلته» .

مط «كويسى» شفتيه فى خط رفيع مشدود وهز رأسه «لقد أصبح رجلاً حسودًا قاسيًا ياكوفى ، مستاء من محنته ومحنة عائلته ومن ثروة عائلتنا» .

«ولكن والدنا هو الذى أنقذه» .

تنهد كويسى بعمق ، «لا يهم ذلك يا كوفى . فالحسد مثل المرض وكذلك الطمع ، وقد حصل على الكثير من الذهب أيضًا ، مقابل تسليم رجل قوى مثل والدنا لأعدائه» .

«ولماذا يريد أى شخص أن يقتل والدنا؟» .

بدت عيناه الواسعتان كأنهما تحملان كل حزن العالم .

وقال : «نحن قوم أقوياء استولينا على أمم عديدة . نحن لنا أعداء كثيرون ، فالبيض الساحليون خائفون من قوتنا ويحاولون إضعافنا وهل هناك طريقة أفضل من أن يقتلوا قادتنا» .

وفجأة طرأت لى فكرة فظيعة : «أفوا . ماذا لو عاد أوپونج وتزوجها؟ لابد أن نعود لنحذرهم» .

صحت وأنا أشد القيد مرة ثانية .

بدت عينا كويسى زائغتين ، «إنه لن يعود إلى أسرتنا وربما يكون فى طريقه إلى الساحل . لو كان يريد العودة بقصة عن الهجوم الذى

تعرضنا له جميعًا وأنه كان هو فقط الذى تمكن من الهرب ، لجعلهم يقتلوننا نحن أيضًا» .

أخذت رأسى تدق مثل ألف من الطبول وأنا أنظر حولى على مجموعات الرجال والنساء المقيدين . غمر نفسى شعور جديد . إنه الكراهية . أخذت أجذب القيد من رسغى ثانية «لابد أن نهرب يا «كويسى» ، لابد أن نجد أويونج ونقتله ، نقتله» . كنت أهتز للأمام والخلف وأمسك الحديد ، وفك كويسى أصابعى .

«كوفى ، كوفى : نحن لا نرد الشر بالشر . سوف يلقى «أوبونج» عقابه على أفعاله» .

انهرت وأنا أنتحب فى حجر «كويسى» وكأنه أمى . لم أشعر أننى رجل . مسح «كويسى» ظهرى وتركنى أبكى حتى صرت ضعيفًا جدًا ولم أعد أقدر على البكاء .

أخذت التمثال الذهبي من كيسى ، وهمست «كويسى . . انظر ما أعطانى أبى» .

بدا مندهشًا وهو يسألنى : «الوالد أعطاك ذلك؟» .

«نعم» وسألته : «هل تظن إذا أريناها لذلك الرجل الذى يشبه الثور ، هل سيصدق قصتنا؟ هل يمكن أن نعطيها له مقابل حريتنا؟» .

«إننا نساوى أكثر من هذا التمثال بالنسبة له» .

وضعت يدى تحت ثوبى وأخرجت الناى .

«انظر ، لقد أعطانى هذا أيضًا . سأبيعه بالرغم من أنه أغلى وأروع شىء أمتلكه» .

مسح «كويسى» بيده على الخشب الناعم الصلب «إنه جميل يا كوفى . لا تدع الحراس يرونه . سوف يُؤخذ منك فقط ولن يطلقوا سراحنا . ذلك الرجل سيبيعنا فى الحال مقابل أكبر مبلغ يستطيع الحصول عليه ولكن ربما نستطيع استخدام الأشياء لنقنعه أننا أبناء زعيم أشانتى كبير» .

عندما مالت الشمس نحو الغروب دخل رجلان مجمع البيوت تتبعهما مجموعة من خدمهما . سقط آخر شعاع الشمس على النقوش الزرقاء والبرتقالية فى أثوابهما والأسورة الذهبية التى تحيط بمعصم كل منهما سميكة مثل القيود الحديدية حول رسغى .

وتحدث أحدهما إلى الحراس بينما اتجه الآخر نحونا .

صاح الرجل البدين الذى كان يتهادى نحونا «آبو ، أحتاج خمسة شبان للعمل فى مزرعتى» . وكان ينظر إلى كويسى .

كنت أحب أخى جـدًا لأننا أبناء نفس الأم ، ولكنى تمنيت عندئذ لو كان «إنتيم» أو «مانو» مكان «كويسى» ، فهما لن يجلسا بهدوء وصبر مثله . كان هذا هو السبب في موت مانو . لقد كنت أفكر فى الاحتفال والفرحة التى سُرقت منا وكانت أمى وأختى وأخى الآخر يظنون أننا مختبئون بأمان بعيدًا مع «أوبونج» . كانت رأسى تدق وفمى ظامئ ومتشقق وبطنى تؤلمنى من الجوع والخوف ولكنى كنت ابن زعيم كبير وكان على أن أتكلم بشجاعة! .

«سيدى!» ناديت على الرجل البدين الذى يُدعى آبو . توقف عن السير ونظر حوله همس كويسى : «ماذا تفعل يا كوفى؟» .

تجاهلت أخى . سيدى! ناديت ثانية ..

«آه» حملق «آبو» فىّ .

سيدى لقد اختطفنا أنا وأخى . نحن أبناء الزعيم كوامي الذى كان . . . الذى كان . . . «خذلتنى شجاعتى بينما استمر آبو يحملق فىّ» .

«أبى قتله رجل يُدعى أويونج!» .

أمسك «آبو» بى أنا وأخى بذراعيه . «أنتما تكذبان أنتما ربما عبيد ذلك الزعيم الكبير» .

قال كويسى : «الغلام لا يكذب» .

وأخرجت التمثال الذهبى والناي من تحت ثوبى «لقد أعطانى أبى هذه الأشياء . لقد كنت حامل كرسيِّه الرئيسى فى احتفال اودويرا اليوم» .

كان الرجل الذى طلب العمال ينفخ فى أصابعه وكأنه لسع نفسه : «آبو ، إذا كان يقول الحقيقة إذن فالأشانتيون بالتأكيد سيزورونك زيارة ملكية» وضحك على التاجر .

تناثرت حبات العرق على وجه آبو البدين وهو يتلمس الناى . وقد جعلتنى عصبيته جريئًا «لو أعدتنا إلى بيتنا فإن أهلى سيكافئونك مكافأة مجزية ياسيدى . سأقول لهم كيف أنك أنقذتنا» .

رفع «آبو» يديه فى الهواء . «لم يكن ينبغى أن أشتريكما من هذين الوغدين» والتفت إلى الرجل الآخر ، «آتا» ، إذا كانا

يكذبان ، ولكن الناى والتمثال أشانتيان» . وفحصنا جيدًا أنا وكويسى ثانية . لو أنكما مثل ما تقولان فسوف يلومونني على متاعبكما» .

«إذا أعدتنا إلى أسرتنا ، فسوف تكافأ» . بدأ صوت كويسى يخبو لقد خاننا عبدنا أويونج . لابد أن تعرف أسرتنا» .

وأضفت «أرجوك أن تساعدنا» .

حك «أبو» يديه معًا بعصبية . «إذا كنتما تقولان الحقيقة ، فأنا لا أريد أن يلومنى أحد لشرائكما» .

قلت : «سيدى ، سوف نقول لأهلنا أنك أنقذتنا» .

فحصنا الرجل الآخر «آتا» جيدًا «أثوابهما ممزقة وقذره ولكنها منسوجة على نحو رائع ، وبشرتهما ناعمة صحية» . وعندئذ سند آتا يده على كتفى آبو : «أظن أننى أصدقهما» .

قال آبو : «ربما أنهما يخدعاننا ولكن اسمع يا آتا ، عندى فكرة أعد الفتى الأصغر إلى أسرته وإذا كانت قصته صحيحه فيمكنهم العودة وأخذ الأخ الأكبر . وسوف يلقى معاملة حسنة . سأعطيك نصيبًا عادلاً من المكافأة» .

ظل «آتا» صامتا لحظة . «لا ، أنا لا أريد أن أتورط فى هذا ، دعهما يذهبان» . مسح آبو وجهه البدين المبلل بالعرق وقال :

«ولكن أفترض أنهما يحاولان خداعنا . لقد أعطيت بندقية جيدة ثمنا لهما . وسوف نقبض مقابلهما ثمنا غاليًا عند الساحل» . قال أتاب باشمئزاز :

«أنت لا تزال نهمًا أكثر مما يجب . لن تتركهما يذهبان فى حالة وجـود مكافـأة فـعـلا . أنت لا تريد أن يضـيع عليك الذهب الأشانتى» .

«وتجارة العبيد هذه مع الأجانب البيض ستكون سبب هلاكك يا آبو» .

«مـاذا ، نحن مـثل الإخـوة أنت وأنا ، أنت تعـرف أنى لا أترك نفسى ليخـدعنى أحـد . ذلك هو السـبب أننى رجل غنى . أنت تعيـد الطفل إلى أسرته . سيـثقون فيك لأنك لست تاجرًا . وأى مكافأة تأتى إلى سأقتسمها معك» .

«أنا لست مهتمًا بالمكافئة ، سأساعدك هذه المرة ، ولكن الحذر واجب . تجارة العبيد هذه مع البيض شىء فظيع ولا يجب أن يكون لك تعامل فيها» .

قدم إلى يده وساعدنى على النهوض ولكنه تكلم مع آبو «عليك أن تتركهما يذهبان هذا هو ما يجب أن تفعله» .

لوح «آتا» بيده فى سخط وعندئذ خاطبنى «أرى أن يأخذك أحد إلى أسرتك وبعد ذلك أخبرهم ليأتوا هنا ويأخذوا أخاك» .

اعترضت : «أريد أخى معى» .

فى الحـال بدأ «آبو» ينزع القـيـود من رجلى وطمـأننى : سـوف أعتنى بأخيك جيدًا .

مسحت بيدى قدم كويسى أخى وفعل هو نفس الشىء قائلاً : كوفى . . سوف نلتقى مرة أخرى فى وطننا . . اذهب مع الرجل» .

لم أتحـرك . «اذهب يا كـوفى . لاتقلق علىّ سنكون معـًا ثانيـة . نهـضت ببطء وأخـذت بضـعة خطوات نحو المدخل ولكنى نظرت من خلفى إلى كـويسى . أشـار لى لأمـضى فى السـيـر . لم أرد أن أتركه . وناديت وعيناى ممتلئتان بالدموع كويسى! كويسى أرجوك» .

وأشـار لى نحو المدخل وقـال ثانيـة : «اذهب يا كـوفى» وأعطانى ظهره ودفن رأسه بين ركبتيه المرفوعتين ، ألقيت نظرة أخيرة على أخى وأخذت أسير متعثرًا خارج المجمع .

الفصل الخامس

أغنية كوفى

مشينا مسافة قصيرة قبل أن نصل إلى قرية أخرى . ونظرت بانتباه شديد للطريق الذى أخذناه ، حتى أستطيع تذكر كيف أعود ثانية لكويسى . وذكرتنى رائحة دخان الخشب الجميلة بوطنى . ولكى أمنع نفسى من البكاء أخذت أفكر فى «اوپونج» وكم أبغضه ، فقد كان من السهل أن أفكر فى الذين أكرههم من أن أتذكر أولئك الذين أحبهم .

دخلنا مجمع بيوت كبير ، وكان الأطفال فيه يضحكون وهم يلعبون فى المساحة المفتوحة فى أحد المنازل كان القمر بدرًا مشرقًا يضىء المجمع وكأننا فى ضوء النهار . جلست مجموعة من الفتيات يتحدثن تحت شجرة كبيرة . لم يكن هذا سجنًا للعبيد ، ولكن قرية حقيقية ذكرتنى بوطنى . وفكرت فى أمى ، وأختى ، وكوامى ، ومانو . كنت خائفًا ووحيدًا ، ولا أحد يخفف عنى . ظننت أن هذا الرجل «آتا» خائفًا مثل اوپونج وأنه لايريد أن يساعدنى ، ولكنه كان يخطط ليبيعنى عند الساحل مقابل مبلغ كبير .

ولكن سرعان ما هدأت مخاوفى ، فعندما ذهب الرجال إلى كوخ حمام كبير خارج مجمع البيوت ؛ طلب منى «آتا» أن أبقى معه فى بيته ، ونادى زوجته «آچوا» التى كانت امرأة طويلة وجميلة ، ذكرتنى عيناها الضيقة المشرقة بأمى وقال لها : «سوف يبقى معنا إلى أن أستطيع إعادته إلى أسرته» .

ابتسمت لى بطيبة وقالت : «كم هو صبى وسيم» شعرت بالراحة ، معها وأخبرتها بقصتى سريعًا وهى تأخذنى إلى حمام صغير مرفق ببيتها ، وقالت : «أنا أعرف والدك . . إنه رجل طيب وعادل يساعد قومه» .

انصرفت «آچوا» ، وجلستُ القرفصاء أمام حوض مليء بالماء وغسلت نفسى . وأحضر لى خادم قماشًا نظيفًا لألفه حول نصفى الأسفل . وربطت التمثال الذهبى حول خصرى ، وعلقت الناى بإحكام وأنا أتبع الخادم إلى بيت السيدة .

تناولنا وجبة لذيذة المذاق من حساء الخضراوات ، ونحن جالسون على حصير من جلد الماعز . كان أول طعام حسن تناولته منذ أن اختطفت . لمحت «آچوا» فلوتى بجانبى والتقطته . «إنه جميل» .

«طلب والدى أن يُصنع من أجلى» .

«اعزف لى يا كوفى» .

أغمضت عينيها ، بينما كنت أعزف أغنية لى وعبرت فيها عن أحزان قلبى . عندما انتهيت فتحت عينيها ، ونظرت إلىَّ وقالت : «أنت مثل طائر صغير ياكوفى» .

ولأنى كنت مُنهكًا ؛ نمت نومًا عميقًا ولكنه مضطرب فى كوخ صغير مع «آچوا» وأبناء «آتا» . وعندما استيقظت فى الصباح التالى ، ظننت للحظة أننى فى بيتى . وبعد ذلك تذكرت كل ما حدث فى اليوم السابق ، ولم أكن أريد أن أفتح عينىّ . «كويسى

المسكين» . أخذت أصلى وأدعو أن يكون بخير مع ذلك التاجر البدين الجشع .

تقلبت على الحصيرة حيث كنت أرقد لأتأكد من أن التمثال الذهبى لايزال فى كيسى وأن الناى بجانبى . فقد كانا كل ما تبقى لى من والدى . لم أكن أستطيع أن أفقدهما . كان أحد الأولاد النائمين فى الكوخ هو ابن «آچوا» الأكبر . وكان يكبرنى ببضع سنوات . «تعال ، أمى أعدت وجبة الصباح لنا» قال وهو يبحث فى سلة ضخمة بجوار حصيرته : «يفترض أنك ابن زعيم كبير أليس كذلك؟ .

قلت له «بلى» ولكنى لم أحب الطريقة التى كان ينظر بها إلىَّ فقد كان ملؤها الشك .

«أظن أن والدك لا يمتلك حتى حقل بطاطا واحد» قال ذلك وهو يغادر الكوخ . كان الأولاد الآخرون قد غادروا من قبل . لم أهتم بما يظن وصرفته من فكرى كغلام أحمق ، وتوجهت إلى كوخ الاستحمام لأغتسل قبل تناول وجبة الصباح .

وكان المجمع ـ الذى وجدته أكبر مما تصورت فى البداية ـ يعج بأنشطة الصباح . جلس الأطفال خارج بيوتهم يأكلون العصيدة . كان هناك ستة منازل مصطفة حول ساحة كبيرة . كل بيت كان له ثلاث جوانب والجانب الرابع من كل بيت يفتح على الساحة . وكان هناك عمود متشعب مُقام خارج أكبر البيوت . وفى أعلى العمود كان هناك إناء كبير للقرابين المقدمة للإله نيامى .

دخلت فتاة صغيرة تحمل عصيدة وشايًا إلى البيت الكبير الذى فى الوسط ، وملحق به بيت صغير يضع فيه صاحبه مقتنياته الدينية ، كان بيت والدى مبنيا بنفس الطريقة . لابد من أنه كان بيت «آتا» وكانت البنت على الأغلب إحدى بناته .

لو كان له زوجات بجانب «آچوا» أو أبناء متزوجون وبنات متزوجات ، فالبيوت الأخرى على الأرجح كانت بيوتهم . وكانت هناك مخازن مكدسة بالبطاطا ، وحظيرة للماعز والخراف . ثم أعدت الطاهية الإفطار وسط المجمع . لقد كان «آتا» رجلا ثريًا .

لمحت أبناء «آتا» يقفون مع الرجال الذين استأجرهم . كانوا جميعًا ذاهبين للعمل فى مزرعته ، وحاولت أن أحدد أى البيوت كان بيت «آچو» ، نادتنى من ساحة البيت ، عندما دخلت بيتها أشارت إلىّ لأجلس جوارها وناولتنى قصعة من العصيدة .

كانت الغرفة التى أكلنا فيها مفتوحة على الفناء وكانت كبيرة وطلقة الهواء مثل غرفة الجلوس فى بيت والدتى . كان هناك عدة سلال لحفظ الملابس فى أحد الأركان ، وحصائر زرقاء زاهية على الأرض الطينية الحمراء . وكان بالغرفة عبير ورود من خشب معطر موضوع فى النار ، مثلما كانت تفعل والدتى تمامًا ، من أجل أن تعطر الهواء .

انتظرتها باحترام حتى تتحدث .

سألتنى : «هل نمت جيدًا؟» .

«كلا ياسيدتى . لم أستطع أن أكف عن التفكير فى أبى

وأخى» . وأخذت أفكر فى الكلمات المناسبة لأقولها لها . «سيدتى معذرة ولكن هل سيبدأ زوجك رحلتنا اليوم؟ .

لا يابنى ، لن يستطيع أن يعيدك ؛ حتى يكتمل قمر الشهر القادم .

وذلك عندما ينتهى من موسم الحصاد ؛ لأن هذا وقت عمل ولا يستطيع الرحيل الآن .

سقط قلبى . «ولكن ياسيدتى لابد أن أعود فى الحال . فأبى وأخى ماتا وباقى أعضاء الأسرة لا يعرفون ذلك . لابد أن تقام طقوس الموتى» .

«كوفى . هذا ليس ممكنا . كن صبورًا سوف يعيدك زوجى . يريد أن يعيدك آمنا بنفسه ، ولكنه لا يستطيع أن يقوم الآن برحلة تستغرق ثلاثة أيام» .

بالرغم من أننى كنت أثق بها وبآتا ، إلا أننى كنت مغتمًا وأشعر بالحنين لأسرتى .

أخذت رشفة من الشاى ، وقالت : «كوفى عندما تنتهى من تناول الطعام ، سآخذك إلى بيت آمو ، الطبال الأول لدى زوجى ، يمكنك أن تقضى بعض الوقت معه وتجعله يسمع أغنيتك» .

شعرت بالبؤس عندما غادرنا منزلها ، ومجمع بيوت العائلة . كانت القرية مستيقظة وتعج بالحركة ، وكل ما رأيته كان يذكرنى ببيتى أنا . كان الناس يتركون بيوتهم ليسيروا إلى مزارعهم . ولمحت خزّافًا فى فنائه يشكل بعض الطين . وأمكننى التعرف فى الحال على صائغ القرية بأساوره وخلاخيله الكبيرة الذهبية ، وهو يغادر مجمع بيوته ويتبعه خادم .

بينما كنا ندخل مجمع بيوت الطبال ؛ مرت بنا مجموعة من الفتيات والنساء يحملن صرر قماش وأوان فخارية على رءوسهن . كنت أعرف أنهن ذاهبات على الأرجح لبيع بضاعتهن ، وكان ذلك يعنى أن هناك سوقًا مجاورًا .

قضيت اليوم فى بيت الطبال ، أنظر إليه وهو يصنع طبلة تتكلم . ولكن عقلى مع ذلك كان يفكر فقط فى الأشياء الفظيعة التى حدثت . جلست وانتظرت الشمس لتغرب ، حتى أعرف الاتجاه الذى فيه بيتى . إذا كان «آتا» غيّر رأيه بشأن مساعدتى ، فسوف أجد الطريق إلى بيتى بنفسى وأحصل على العون من أجل «كويسى» . فأنا ابن رجل عظيم وإذا كان علىَّ أن أغادر وأجد طريقى بنفسى ، فسوف تحمينى روح أبى . لم أكن بحاجة إلى «آتا» أو أى أحد آخر . ارتفعت روحى المعنوية ووضعت الناى على شفتى وعزفت أغنية سعيدة .

عندما تركت بيت الطبال لأعود لبيت «آتا» ، كانت الظلال الطويلة التى تلقيها شمس الغروب تنتشر فى اتجاه بستان الأرز . وعندئذ عرفت الطريق لقريتى .

بعد أن أكلنا ؛ طلبت منى «آچوا» أن أعزف على الناى . كان ساكنو المجمع كله قد تجمعوا فى قسم «آتا» من الساحة . وكان هناك بعض الأطفال والأعضاء الكبار من العائلة فى غرفة جلوس «آتا» التى تطل على الساحة . كان آتا وآچوا يجلسان على آرائك مبنية

فى الحائط ومغطاة بجلود الفهود وجلود الحيوانات الأخرى . وكانت الحُصُر الزرقاء والحمراء والبرتقالية الداكنة ، تزين الأرض الترابية .

وقفت عند المدخل حتى يستطيع هؤلاء الذين بالداخل والخارج أن يسمعونى . وبينما كنت أعزف ظهرت النجوم وأخذ الأطفال يضحكون ويرقصون وتألقت عيون النساء كالذهب ، عزفت أغنيتى أنا ولم تكن نغمة سمعتها من قبل أو علمها لى «أويونج» . عزفت الفرحة التى شعرت بها فى قلبى ، عندما عرفت أننى سرعان ما سألحق بأسرتى . قال لى «آتا» : « ليتك كنت تستطيع أن تبقى وتكون عازفًا لى» . وعندئذ نظر إلى ابنه ذى الوجه الشكس . «بينما أنت هنا يا كوفى ، أريدك أن تعلم «كواكو» كيف يعزف مثلك . فهو يعرف أغنية أو اثنتين فقط» .

قلت لنفسى : ربما يسقط المطر فى كل مرة يعزفهما .

ابتسمت «آچو» قائلة : «تلك فكرة رائعة» .

لم أنظر إلى وجه «كواكو» ، لأنى كنت متأكدًا أنه كان ينظر إلىَّ شذرًا .

وسأل والده : «هل ذلك يعنى أنه ليس علىّ أن أعمل فى الحقول؟» .

بالطبع عليك أن تعمل! كوفى يستطيع أن يعلمك فى المساء عندما تنتهى من عملك .

«لماذا ليس عليه أن يعمل؟» قال وهو ينظر بغضب فى اتجاهى .

«إنه ليس ابنى . أو خادمى ، أو عبد عندى ، إنه ضيف فى بيتنا» .

لم يقل «كواكو» شيئًا بعد ذلك ، ولكنى كنت أعرف أنه كان غاضبًا ويشعر بالخزى . ضحكت إحدى أخواته ، وطلب منى الجميع أن أعزف أغنية أخرى . لقد كان «كواكو» هو الوحيد الذى لا يبتسم فى اتجاهى .

كنت أكثر هدوءاً ومرحًا تلك الليلة ، وبينما كنت راقدًا أعلى حصيرتى ، أسمع الأولاد وهم يغطون فى نومهم ، اتخذت قرارى . لن أستطيع الانتظار حتى يأخذنى «آتا» إلى أسرتى ثانية . كان كويسى يحتاج المساعدة . وتحتاج أسرتى أن تعرف أن الوالد ومانو قد قتلا .

قالت «آجوا» إنها رحلة يوم ونصف فقط من هنا . سوف أغادر مبكرًا فى الصباح قبل أن تصيح الديوك وأجد الطريق إلى بيتى .

الفصل السادس

البحث

أيقظتنى زقزقة الطيور والغربان الناعبة . كان الأولاد قد ذهبوا جميعهم . لقد استغرقت فى النوم أكثر من عادتى . وبسرعة نهضت واختلست النظر خارج الكوخ . لم يكن أحد هنا أو هناك وعلى الأرجح كان «كواكو» وإخوته فى بيت والدتهم يتناولون الإفطار . مازال بإمكانى أن أغادر بدون أن يرانى أحد . تحسست فخذىّ ، لأتأكد أن الكيس لا يزال هناك . وبعد ذلك بحثتُ عن الناى الذى كنت أضعه بجانبى على فراشى ، لم أجد الناى . لذلك تحسست تحت الوسادة ، لم يكن هناك . أخذت أبحث حول الغرفة ، لقد ضاع الناى! .

رفعت المرتبة القش عن الأرض ، وألقيتها كالمجنون ، فى ركن ، وبحثت عنه تحت وسادة «كواكو» ووسائد الأولاد الآخرين . أخذت أبحث فى السلال التى يضعون فيها ملابسهم ، دون أن أهتم أننى ألقيت بالصنادل والأثواب فى أرجاء الغرفة .

كنت أعرف أنه هناك . «كواكو» كان يخفيه محاولا مضايقتى وأخذت أبحث فى أشيائهم مرة ثانية . لم أجد الفلوت . أسرعت خارج الكوخ وبدأت أحفر فى الأرض التى أمامه . ربما دفنه ليخدعنى .

مرت بى ابنة «آتا» وهى فى طريقها لتأخذ الإفطار لوالدها .

وضعت قصعة مليئة بالعصيدة على الأرض ، وجلست القرفصاء بجانبى «ما الذى تفعله؟» .

صحت : «نايى ، نايى ضاع وأعرف أن أحد إخوتك . . . على الأرجح كواكو قد أخذه» .

همست لى : «أنا أعرف أين فلوتك» .

أمسكت بكتفيها النحيفتين حتى كادت تقع .

«أين؟ قولى لى» .

لكنك لن تقول أننى أخبرتك؟

انتحبت بيأس «لا . أرجوكِ» .

كواكو ذهب إلى السوق ليبيعها «اشيرو» ـ لأحد التجار ـ .

وبدون فكرة أو كلمة أخرى ، أسرعت خارج مجمع البيوت ، ربما أستطيع أن ألحق به قبل أن يصل إلى السوق ، وجريت إلى ما بعد مجمع بيت الطبال ، ثم إلى الطريق ، حيث رأيت النساء ذاهبات للسوق اليوم السابق . وكان موكب نساء السوق هناك ، وبعضهن مع أطفالهن يسيرون أسفل الطريق ، ويضعن السلال وصرر الأقمشة على رءوسهن فى اتزان ، كالملكات يرتدين تيجانًا ثقيلة .

اندفعت عبر جانب الطريق ، متتبعًا صفوف النساء ، وبعض الرجال المتجهين إلى السوق . وعندما وصلت السوق الكبير المزدحم ، تذكرت الاحتفال فى كوماسى . كان السوق قد دبت فيه الحياة للتو .

كان بعض النساء يفرشن سلال البطاطا والبقول والحبوب والبطاطس والأطعمة الأخرى على الأرض أمامهن . كانت أخريات يعرضن صُرَر الأقمشة المنسوجة بألوان الأرض والسماء .

أين سأجد هذا التاجر«شريف» بين بائعى السوق وصفوف أكشاك البيع؟ أخذت أجرى من كشك لكشك ومن بائع لبائع أسأل عن تاجر اسمه شريف . وكانت الإجابات الوحيدة التى تلقيتها : هى لم أره اليوم ، أو لستُ متأكدًا أين هو» .

أوشكت على البكاء عندما أدركت أننى ربما لن أرى نايى ثانية . وكدت أتخلى عن بحثى عندما رأيت كشكًا كبيرًا يمتلىء بالطبول ، وكراسى الأشانتى ، والبنطلونات الواسعة والكابات الصغيرة من المغرب والأساور النحاسية والفضية وصرر الأقمشة .

كانت فتاة فى مثل سنى ، وعيناها مثل قمرين أسودين ، تطوى بإتقان قماشًا أبيض منسوجًا على نحو رائع فوق حصيرة على الأرض خارج كشك البيع . كانت ترتدى ملابس تشبه الملابس العربية ورأسها ووجها مغطى بشال أحمر داكن ، يظهر عينيها السوداوين الجميلتين .

سألتها : «هل تعرفين بائعًا اسمه «شيرو»؟» .

قالت بلغة الأشانتى الصحيحة : «شيرو هو صاحب هذا المتجر» .

سألتها وأنا أنظر بلهفة إلى كل السلع التى أمام الكشك : «هل جاء غلام هنا ليبيع نايًا؟» .

بدأت ترتب الأساور النحاسية بجوار القماش .

لم يأت أحد هنا .

«أين شيرو؟» .

«لا أعرف ولماذا تسأل أسئلة كثيرة هكذا؟» .

صحت بغضب : «أريد نايى!» .

«لا أعرف أى شىء عن نايك ولا تصيح فىّ» .

وسارت إلى مؤخرة الكشك ، وتركتنى أقف هناك وذراعاى مطويان . لابد أن شريف هذا سيأتى إلى كشكه فى وقت معين . سوف أنتظره .

عادت الفتاة ، تحمل ملء ذراعيها قماشًا ، منسوجًا بالأزرق والأصفر فذكرنى بالثوب الجميل الذى كان والدى أعطاه لى .

سألتها : متى سيعود شيرو؟

قبل أن تستطيع أن ترد قال صوت : «أنا عدت ، من أنت؟» .

استدرت لأجد رجلاً عجوزًا نحيفًا وقويًا ذا عينين ضيقتين . «إننى أبحث عن نايى . لقد أخذه منى غلام اسمه «كواكو» وقالوا لى إنه باعه لك» .

«لى؟ وهل أنا التاجر الوحيد فى هذا السوق؟» .

ثبَّت عينيه فى عينىَّ فجعلنى أشعر كأنى مذنب بشىء . حولت عينىّ عنه ونظرت إلى الفتاة التى كانت لا تزال ترتب بضائع شيرو . ومد يده فى كيس كان يحمله .

«هل هذا نايك؟»

صحت : «هو ذا» وأنا أمد يدى نحو الناى .

دفع ذراعى بعيدًا . كانت البنت منشغلة بترتيب الأسورة كأنها لا تعيرنا انتباهًا .

ذلك نايى : أعطاه لى والدى ، وتدفقت قصتى من فمى بنفس سرعة الدموع التى انهمرت على خدىَّ .

قال شريف : «يمكنك أن تشترى الناى منى» .

«ولكنه نايى . كواكو سرقه منى» .

«لا يهم . أنا دفعت مبلغًا كبيرًا فيه . وقد تكون كاذبًا بارعًا تحاول أن تخدع رجلاً عجوزًا» .

تنهدت وقلت : «ولكن ياسيدى هذا نايى . كل ما قلته لك صدق» ومددت يدى إلى مئزرى وأخذت التمثال الذهبى ، هذا كل ما معى» .

فأخذ شيرو التمثال وفحصه بعناية «إنه لا يساوى الكثير . ليس له قيمة مثل الناى ، إنه مجرد تمثال ، وأعاده إلىَّ ثانية» .

قلت له : إنه ذو قيمة بين أهلى إنه يعنى «لا تندم على ما حدث» .

ابتسم التاجر : «هذه حكمة جيدة ، وهذا هو السبب فى أننى لن أبادله بالناى ، لأنى بالتأكيد سأندم على ذلك ، يمكنك أن تعمل عندى فترة حتى تكسب ما يكفى لتدفع ثمنه» .

هززت رأسى : ولكنه نايى . لماذا يكون علىَّ أن أشترى شيئًا هو في الأصل ملك لى؟

كيف تثبت أنه ملكك؟

سأعزف عليه من أجلك .

جلس القرفصاء أمام بضائعه والتقط الفلوت .

«طفل ساذج ، ذلك ليس دليلاً ، أى موسيقي ماهر يستطيع أن يخرج نغمات من هذا الناى» .

أسرعت بالرد : «ليس مثل النغمات التى أعزفها» .

ألا تعرف «كواكو» ، الغلام الذى باعه لك؟

«كلا» .

«إنه يعرفك وقد أخبرتنى أخته أنه سوف يبيع الناى لك» .

«الجميع يعرفنى ، فأنا أكبر تاجر فى هذا السوق وفحص الناى بعناية . إنه مصنوع جيدًا يمكن أن أحصل على مبلغ كبير ثمنًا له ، ولكنى لن أبيعه لأحد ، سوف أبيعه فقط لك بالثمن الذى دفعته فيه» .

جلست أمامه وكأنى أنا أيضًا رجل ، أخذت أتفحصه بعناية ورأيت عملات ذهبية فى عينيه .

قلت له : «سيدى إذا أعدت لى نايى وأعدتنى أيضًا إلى أسرتى فسوف يعطونك ذهبًا ، قصتى حقيقية فوالدى زعيم عظيم ولدينا كثير من الذهب .

حملق شيرو فىّ كأنه يستطيع أن يقرأ أفكارى . «أنا رجل مشغول وليس عندى وقت لأعيد أمراء أشانتيين إلى أسرهم . ونادى على الفتاة وأمرها «آما ، أحضرى لى كوبًا من الشاى» .

إذن سوف تعمل عندى مقابل أن تسترد نايك .

فكرت ربما ينبغى أن أعود وأخبر «آتا» بما فعله «كواكو» ولكن إذا مشيت فسوف يبيع شارو الناى بالتأكيد .

قلت : «حسنًا سأعمل عندك» وأحنيت رأسى حتى لا يرى الغضب فى عينىّ .

أحضرت «آما» الشاى لشارو ، ونظرت إلىّ بعطف بينما أخذ شاور فنجانه ووقف وقادنى إلى مؤخرة كشكه . ووضع الناى فى صرة حتى لا يراها المشترون . وبعد ذلك أشار إلى كومة من القصعات النحاسية الصفراء وناولنى قطعة قماش وقصعة ممتلئة بالزيت . «نظف هذه» .

جلست وبدأت ببطء أمسح إحداها . ومن زاوية عينى رأيت شارو يربط الصرة بإحكام ويعقدها عدة عقد ويلقيها فوق كتفيه النحيلتين وقال : «لا تقلق ، لن أبيعه ، ومع ذلك سقط قلبى عندما خرج ومعه كنزى . وسرت إلى مقدمة الكشك حيث كانت الفتاة تعرض لعدة زبائن بعض الأقمشة ، وجلست القرفصاء أمام الكشك مثل خادم عادى أو عبد . وواصلت تنظيف القصعات حتى بدأت الأتربة والخدوش الداكنة تختفى . وسوف يظل أبى يحرسنى ، ويحمينى ، وسأسترد نايي ثانية من «شارو» وسريعًا سأعود مع أخى إلى بيت أسرتى .

أراحت الضحكات العالية من نساء السوق على بُعد بضعة أكشاك روحى المضطربة وذكرتنى أصواتهن السعيدة المرحة بأمى

وأختى «آفوا» وتخيلت كيف ستضحك كل منهما وتغنى عندما يدخل «كويسى» وأنا عبر بوابات مجمع بيتنا .

لمحت شكل شخص طويل ومألوف يتألق فى ثوب أزرق وسوار ذهب يغطى ذراعه . ولكن وقفت أمامى سيدة تحمل سلة كبيرة ممتلئة بالبطاطا والخضراوات ، فلم أستطع أن أراه . ووقفت لألقى عليه نظرة أفضل ، ولم أكد أصدق عينىّ . كان هذا هو «أوپونج» بساقيه المتباعدتين قليلا ، ويداه على فخذيه ، يبتسم ويتحدث لامرأتين . وبسرعة تحركت خلف الكشك حتى لا يرانى ، وظللت أراقبه بينما أخذ قلبى يدق بسرعة خوفًا وغضبًا . . كيف يجرؤ أن يكون مبتهجًا هكذا بعد ما فعله؟

الفصل السابع

الهروب

تركت الفتاة زبائنها وتبعتنى إلى خلف الكشك .

سألتنى «ماذا بك؟» .

فتحت فمى لأتحدث ولكننى كنت أرتجف فقط . وكانت عيناها مثل قمرين أسودين ناعمتين كالحرير . «هدئ من روعك . . دعنى أنتهي من الزبائن وبعد ذلك يمكن أن تقول لى ما حدث» .

لقد أعادت إلىَّ رؤية «أويونج» كل آلامى ورعبى جلست فى ركن من الكشك ودفنت وجهى فى ركبتىّ المرفوعتان وسرعان ما عادت الفتاة .

سألتنى : «ماذا أفزعك؟»

قلت : «رأيت اويونج . الرجل الذى تسبب فى قتل أبى» ووصفت لها شكله وماذا كان يرتدى .

أنا أعرف الرجل ذا الثوب الأزرق . واسمه چيم وليس أويونج .

أصررت : إنه «أويونج» .

فقالت : «كلا إنه چيم . وهو تاجر غنى من الشمال . الجميع يعرفونه . لقد جاء هنا منذ يومين فقط والذهب يتدفق بين يديه كما يتدفق ماء النهر» .

قلت : «أنا أعرفه طوال حياتى ، باسمه أوپونج . لا يهمنى ماذا يسمى نفسه الآن . لقد حصل على الذهب مقابل قتل والدى . تلك هى الطريقة التى أصبح غنيًا بها» .

بدأت أفهم أين اختفى أوبونج حتى اليوم السابق لوصولنا إلى كوماسى . لقد كان يعد خططه ويتظاهر بأنه تاجر .

سألتها وأنا أرتعد خوفًا على حياتى : «هل يعرفه؟»

«لقد تحدثا ولكنهما ليسا صديقين» .

«هل يأتى هنا ليزور شارو؟» .

«كلا ، لقد مر هنا مرة واحدة فقط ولكنه تحدث إلى شارو عن تكوين قافلة من العبيد لبيعها عند الساحل» .

«لابد أن أبتعد عن هنا قبل أن يرانى ، ولكن لابد أن أسترد الناى» .

قالت «آما» : بالتأكيد حياتك أهم من الناى» .

قلت : «الناى هدية من أبى العزيز . لابد أن آخذه» .

«إذن لابد أن تبقى مختبئًا وراء الكشك وتكمل هذا العمل لشابو . سوف يعيد إليك الناى كما وعد» . وهدأت قليلا .

مضى اليوم بطيئًا وأنا ألمع وأمسح « القصعات» والفوانيس النحاسية خلف الكشك وأنا أسمع «آما» تخدم الزبائن . وكنت أجفل بعصبية كل مرة أظن أننى أسمع وقع أقدام تقترب . وعندما

شعرت أنى لا أستطيع أن ألمع «قصعة» أخرى جاءت الفتاة خلف الكشك وأغلقته لوجبة منتصف اليوم .

طمأنتنى قائلة : «شابو لن يعود الآن . إنه عند الأكشاك فى سوق ميمندا» جلست أمامى وناولتنى «قصعة» ماء لأغسل يدى . وفعلت نفس الشيء .

وأضافت : «لا تقلق بشأن أوپونج سوف أبقيك مختبئًا فى أمان» .

نظرت إليها وهى تعد «الملاجيت» وهو طعام من السمك المسلوق وحفنة من الذرة والعجين وزيت النخيل وتعجبت من هذه الفتاة التى ترتدى ملابس مختلفة ولكنها تتحدث لغة الأشانتى بإتقان .

سألتها وهى تناولنى الطعام : «لماذا تساعديننى؟» .

كان وجهها جميلا مثلما تخيلت . كانت شفتيها ممتلئتان وأنفها مثل تل يرتفع قليلاً فوق عظمتى الوجنتين ، وخمنت أننا كنا فى نفس العمر .

«أنا لا أنتمى إلى شابو ، ولكننى مثلك ، فقد سرقونى من قريتى . اسمى «آما» وأنا من الأشانتيين أيضًا» .

أخذت قضمة من الطعام : «أنا لست من عائلة ملكية مثل عائلتك ، فعائلتى من المزارعين وكانت قريتنا فى مكان بعيد عن المملكة . كنا نعيش فى سلام مع جيراننا» .

جالت الفتاة ببصرها بعيدًا وهى تحكى حكايتها .

«دأب صيادو العبيد على الإغارة على القرى المجاورة . وأثناء النهار ، عندما كان الكبار بعيدين فى مزارعهم ، كنا نحن الأطفال لدينا مهمة تسلق الأشجار ، بحيث نستطيع أن نرى أى شخص يقترب من القرية . كان علينا أن نصيح صيحات طيور معينة كإشارة للكبار بأن غرباء قادمون .

قدم كبار السن المساعدة أيضًا بأن ملأوا الطريق إلى قريتنا بإبر مسمومة . ونحن الأطفال كنا نحب مهمتنا التى كانت أفضل من إحضار الماء وحطب الوقود . كنا نغنى ونلعب على الأشجار ، ولم يأت أحد أبدًا ليضايقنا .

«وفى يوم من ذات الأيام رأيناهم . . . عصابة من الرجال من على بعد قادمون من التلال . وصرخنا بصيحات طيورنا وجاءت أمهاتنا وأباؤنا من الاتجاه المعاكس ومعهم مناجلهم القصيرة فى أيديهم لملاقاة الغرباء . ولكن المناجل التى يستخدمونها فى قطع سيقان النباتات فى الحقول لم تكن لتصمد أمام بنادق الغرباء .

تسمم عديد من الرجال بالإبر المسممة ، ولكن ذلك لم ينفع كثيرًا . وحاولت أن أجرى لأمى وأبى ولكنى أسرت مع أخى . كنت أسمع فقط صرخات وصيحات لقد ضرب الغزاة رجال قريتنا وقيدوهم ، وقتلوا من قاتلوهم بضراوة .

«ربطوا أمى بالسلاسل مع النساء الأخريات . و ذهبنا نحن الأطفال مع مجموعة من الرجال والكبار مع مجموعة أخرى .

وأُحرقت القرية . لا أعرف ماذا حدث لجداتنا وأجدادنا الكبار . وقد رأينا شروق الشمس وغروبها خمس مرات قبل أن نأتى إلى سوق العبيد . كنا متعبين وواهنين وبالكاد كنا نستطيع السير على أقدامنا الدامية .

«رأيت رجالاً بيضًا فى تلك السوق . وقد اشترى أحدهم كل الأطفال فى قريتى ، بما فيهم أخى . أما أنا فقد اشترانى شابو . كنت مريضة جدًا وقد اشترانى مقابل بضع عملات من الصدف الأصفر . كان يريد فقط عبدًا ولدًا أو بنتًا ليساعده فى السوق .

«وأنا مع شابو وأسرته منذ عام حتى الآن ، وأنا أحلم بعائلتى ، ولكنى أعرف أننى لن أراهم ثانية أبدًا» .

وبدأت تبكى ، وحبست دموعى وأنا أمسح على ظهرها بيدى ، مثلما كانت أمى تمسح ظهرى عندما كان شىء يضايقنى .

وقالت أنه يريد أن يزوجنى لأحد أبنائه عندما أصل سن الزواج» .

«وأنت لا تريدين أن تتزوجى ابنه؟» .

«لا ، ولكن ليس لى أن أختار ، فقد ضاعت كل أسرتى . وليس لى أسرة . وقد تحطمت عشيرتى كلها مع قريتى . وبعض الناس يقولون إننى محظوظة لأننى لم يأخذنى الرجل الأبيض ويضعنى فى بيته الذى يتحرك على الماء . وقد سمعت أن هؤلاء الناس يطهونهم ويأكلونهم ولا أحد يسمع عنهم ثانية أبدًا» .

«هل هم أشرار هكذا!؟» لمست ذراعها وأنا أقول لها : «آما . عندما أسترد الناى سأغادر هذا المكان . ويمكنك أن تأتى معى . سوف ترحب بك أسرتى فى قريتنا» .

«ولماذا سيفعلون هذا من أجلى؟» .

«لقد أحسنت إلىّ وأنت من الأشانتى وسوف يعاملونك كابنتهم» . وأخذت آخر قضمة من الطعام وقلتْ لها : «وربما بعض أفراد عشيرتك عادوا إلى قريتك بعد أن غادرها المغيرون» .

أشرق وجهها : «نعم . وربما أمى وأبى فروا من مختطفيهم . هل تظن أنهم فى القرية؟» .

«يمكن أن يكونوا . ربما عادوا ويبحثون عنك الآن» .

ابتسمت بلطف وهى تقول : «أنت أكثر ودّاً مما اعتقدتك فى البداية . . ما اسمك؟» .

«كوفى» .

نهضت وهى تقول : «يجدر بك أن تعود للعمل يا كوفى حتى يعيد شابو الناى إليك» .

«آما ، هل ستهربين معى؟ فسوف تساعدك أسرتى» .

تنهدت بعمق وغطت وجهها وقالت . «لكن لو وجدت قريتنا خاوية ، فلن أتحمل ذلك . سوف أفكر فى الرحيل معك» قالت ذلك وصوتها يمتلئ بالشك .

«لا بد أن أرحل سريعًا . علىّ أن أخبر أسرتى أن «أويونج» هنا ، وإذا بقيت طويلا ، فلابد أنه سيرانى» .

«ينبغى أن أفتح الكشك . ابق فى الخلف هنا ، ابق بعيدًا عن الأنظار» .

عندما مشت نظرت خلسة بعصبية من خلف الكشك ، ولكن لم أر «أويونج» . كانت «آما» مشغولة بالبيع بينما أخذت أمسح وألمع حتى صارت جميع «القصاعات» والأساور والفوانيس براقة .

عندما حان وقت الإغلاق ، وضعنا بضائع شابو خلف كشكه وانتظرنا حتى وصل مع عدة أولاد صغار من الخدم . الذين يحملون صرره ، ولكنه حمل الكيس الذى فيه الناى بنفسه!

انحنيت قليلا وأنا أقول له : «سيدى لقد انتهيت من التلميع» .

«رائع ، ولكنك لم تكسب ثمن الناى بعد . لدى مزيد من العمل لك غدًا» .

قاومت غضبى . هل كان ذلك الرجل العجوز يحاول أن يجعلنى أعمل عنده للأبد؟ سرنا فى صمت إلى قريته التى كانت فى اتجاه غروب الشمس ، عدة أميال من قرية «آتا» . كان لديه مجمع بيوت كبير ، وبمجرد أن دخلنا لم أر «آما» فقد سارت خلال طريق مدخل لبيت طويل مغلق من جميع الجوانب واختفت داخل البيت مع النساء الأخريات وبنات الأسرة .

أكلت وجبة وحيدة بائسة وأنا جالس خارج الكوخ الذى كنا سننام فيه . وتجاهلت ضحك وحديث الخدم من الأولاد . كانوا

يتحدثون لغة الفانتى وحاولوا أن يصاحبونى ولكنى تظاهرت أنى لا أفهم لغتهم .

لم أكن أريد التحدث لأحد سوى «آما» . وكنت أريد الناى . لابد أن أستعيده حتى لو كان علىّ أن آخذه من صرة شارو بنفسى .

فى تلك الليلة عندما كنا داخل الكوخ ، كنت أسمع غطيط الأولاد النائمين ، بينما كنت أخطط كيف سأعثر على الناى وأهرب به .

جرفنى النوم ولكنى قفزت مستيقظًا عندما هزنى شخص برفق . «كوفى ، كوفى . أنا آما . استيقظ» .

جفلت : «ما الأمر؟» .

«ش ش» وضعت إصبعها على شفتيها وجذبت ذراعى . تأوه أحد الأولاد فى نومه بينما كدت أتعثر فوق آخر . وبحكم العادة تأكدت من أن التمثال الذهبى حول فخذى . خرجنا إلى الظلام خارج الكوخ . مدت يدها فى السلة التى كانت قد تركتها عند المدخل . «تفضل الناى . لعل الإله نيامى يسامحنى لأنى أخذت ما لا يخصنى ، ولكنه ليس ملكا لشارو أيضًا . إنه ملكك أنت» .

قلت لها : «آما ، أنت أروع إنسانة فى الدنيا . كيف استطعت . . .» .

وضعت «آما» إصبعها فوق شفتاى هامسة . «سوف أخبرك فيما بعد» . ولكن لابد أن نرحل الآن . أنا قررت أن أذهب معك

ياكوفى» . وأشارت وراء جدران مجمع البيوت لخيط لشعاع ضعيف من النور . «علينا أن نذهب من ذلك الطريق ، حيث تشرق الشمس» .

وثب قلبى داخل صدرى ، سوف أذهب لقريتنا .

«لابد أن نرحل الآن قبل أن يستيقظوا» .

وضعت سلتها أعلى رأسها وأخذنا ننحنى فى ظل الأشجار ونحن نتجه نحو بوابة مجمع البيوت . وتركنا المجمع فى ظلام الفجر ومشينا بسرعة عبر القرية . وكان بعض الناس قد استيقظ لأننا كنا نشم رائحة الدخان من مجمعات البيوت الكثيرة حيث كان النساء يبدأن فى إعداد وجبة الصباح . كنا نسير بجوار الجدران حتى لا يرنا أحد . مع ذلك كنت سعيدًا ، لأن حولنا لم يكن ظلامًا كاملاً بل ذلك الوقت ما بين الليل والنهار . لم نتوقف لنتكلم ، لأننا كنا نريد أن نبتعد أقصى ما نستطيع عن القرية قبل أن يكتشف شريف غيابنا . وعندما وصلنا بستان أشجار الأرز ؛ توقفنا فى النهاية لنستريح ونأكل ، بعد أن مشينا عدة ساعات . وكان «الملاجيت» التى أحضرتها «آما» فى سلتها لذيذة وبعد أن أكلنا حتى شبعنا تحدثنا .

وسألتها : «كيف حصلت على الناى؟» .

كان وجهها يبتسم وعيناها تتلألأ . «جاء ضيوف لشارو ، ولم يكن فى مسكنه ، ذهبت إلى غرفته وفتحت الصرة ، وأخذت الناى» .

«ألم تخافى أن يمسكوا بك؟» .

قالت وهى تخفض عينيها : «نعم ، ولكنى كنت أريد أن أساعدك لأنك كنت طيبًا معى جدًا» .

واستندت إلى جذع شجرة : «ولكن لو كان أمسكنى ؛ كنت سأقول إنى أعد البضائع مثلما أفعل عادة لكى أذكره بما لدينا أو نحتاجه» .

أخذت يدها الناعمة الصغيرة فى يدى ، وقلت لها : «أنت أشجع بنت فى المملكة وعندما نصل إلى قريتى سوف تعاملك أسرتى وكأنك ملكة» .

ابتسمت وهى تنهض وقالت : «أظن أننا يجب أن نواصل السير يا كوفى حتى إذا حل المساء وجدنا مكانًا آمنا ننام فيه» .

عندما بدأنا فى المسير تأكدت «آما» أن الطعام الذى كنا نحتفظ به لنأكله فيما بعد مغطى بالقماش . ومشينا سعداء فى هواء الصباح الجديد النقى العذب وكان كلانا يثب جافلاً عندما يتحرك شىء وراء الشجيرات المجاورة . ولما كشف النسيم القوى الأوراق ظهرت مؤخرة أرنب تحت شجيرة فضحكنا بارتياح .

قلت لها : «لا تقلقى يا «آما» نحن لم نتوغل فى الغابة ألا ترين كيف أن الأرض ممهدة حيث نسير وليست مكسوة بالشجيرات؟ فذلك يعنى أن الناس يسافرون على هذه الطريق والقرى قريبة» .

سألتنى وهى تسرع خطواتها : «كيف تعرف ذلك؟»

«ذلك الشيطان أويونج . . علمنى عن الغابة . إذا ظللنا نسير على هذه الطريق ، فسوف نصل إلى إحدى القرى قبيل حلول الليل» .

أخذنا نسير حتى مالت الشمس ناحية الغروب . وبالرغم من أنى تظاهرت بالشجاعة من أجل «آما» ، إلا أنى كنت خائفًا من فكرة قضاء الليلة فى الغابة «سوف نشعل نارًا لنطرد الحيوانات بعيدًا عنا فربما يوجد بعضها قريبًا منا» .

قبل أن يحل الظلام مباشرة ، وجدنا مكانا ينجدل أعالى مجموعة من الأشجار القصيرة فتكونت مظلة من الأوراق . فقلت «هذا يبدو مكانًا جيدًا نبقى فيه أثناء الليل . وبعد أن وضعت الناى على الأرض ، بدأت أجمع أغصانًا صغيرة لأصنع نارًا .

نظرت آما حولها وهى تشم . «أشم دخانًا من نيران الطهى»! .

قلت : «إنها قادمة من هناك ، وأنا أشير إلى دغل من العنب هناك قرية قريبة» .

فاقترحت : «دعنا نذهب هناك ونطلب المساعدة» .

«لا . ذلك ما يتوقع شارو أننا سنفعله . وسيكون متأكدًا أنه سيجدنا هناك . نحن آمنون هنا هذه الليلة» .

أعددنا النار وبنينا سياجًا من الأغصان والأوراق ، تحت الأيكة الصغيرة من الأشجار . وبسطت «آما» رداءها على الأرض كغطاء لنا نجلس عليه بينما تناولنا قطعة أخرى من «الملاجيت» . واستمعنا

إلى أصوات «صراصير الليل» والحشرات الأخرى . «لا تخافى يا «آما» سوف يحمينا أسلافنا» .

وعندما ظننت أنى سمعت ضبعًا على بُعد ، التقطت الناى وعزفت أغنية اعتادت أختى أن تغنيها . كانت آما تعرفها وغنت معى . وأسكتت الموسيقى مخلوقات الليل التى تخيلت أننى سمعتها وأزالت خوفنا . ولما غلب علينا النعاس رقدنا متجاورين وسط السياج المؤقت ، ملفوفين برداء آما .

كان صوت قلبى الخافق بقوة أعلى من أصوات الليل . ولو لم تكن «آما» معى كنت سأموت من الرعب .

وسألتها : «هل أنت خائفة يا آما؟» .

نعم يا كوفى : «وهل أنت خائف؟» .

قلت بهدوء : «كلا . . لست خائفًا» .

ومرت «آما» بيدها على شعرى مثلما كانت أمى تفعل .

وهمست : «أجدادنا يحرسوننا وسوف يحرس أحدنا الآخر» .

هدأتنى كلماتها ونمت نومًا عميقًا .

لمست الشمس وجوهنا كأنها يد دافئة ، فى الصباح التالى . كانت «آما» لا تزال نائمة تتنفس بهدوء بجوارى . وجعلنى الهواء النقى ونور الصباح وجو الصحو ، وأصوات العصافير المغردة والأصوات الخافتة من القرية المجاورة أشعر أننى أشانتى شجاع . قلت فى نفسى باعتزاز لقد قضيت ليلة فى الغابة .

ذهبت خلف شجرة لأقضى حاجتى . وعندما عدت إلى المأوى كانت «آما» تجلس وتمسح عينيها . «آه كوفى عندما استيقظت ظننت أننى لا أزال عند شارو» . ومدت يدها داخل سلتها وأخرجت رمانتين حمراوين عصيرتين . «هاتان هما وجبة إفطارنا» . وبحثت فى السلة «ولدينا قليل من «الملاجيت» باقٍ لليل» .

قلت بثقة : «ذلك كل ما سنحتاجه ، مع الفجر القادم سنكون قد وصلنا قريتى - أو واحدة من قرانا المجاورة» ، وأخذت قضمة أخرى من الثمرة ، وسنكون بعيدين فى أية قرية أشانتية .

أخذ كل منا قطعة أخرى من الثمرة وشاهدنا العصافير وزوجًا من القرود ذات اللون الأبيض والأسود تنتقل سريعًا بين الأشجار .

العالم مختلف تمامًا أثناء النهار .

وقلت : «أتساءل ما إذا كان شارو يبحث عنا» .

أخذت «آما» آخر قضمة من ثمرتها وقالت : «ربما أنه بحث عنا لبعض الوقت ولكنى أظن أنه الآن قد كف عن ذلك ، وربما أنه وضع مكانى عبدًا آخر ليعمل فى السوق» .

التقطت الناى قائلاً : «أعرف أنه غاضب بسبب هذا الناى» .

«حسنًا ، إنه ليس له» .

نهضت قائلاً : «يجدر بنا أن نذهب الآن» .

طوت «آما» رداءها ووضعته فى سلتها .

أخذنا نسير سريعًا على طريق يكثر السفر عليه ، وتوقفنا مرة واحدة فقط لنلتقط بعض التوت البرى ، وقالت آما سوف نستمتع بالطعام مثل ملك وملكة بملاجيت بارد مجفف وتوت» .

أخذنا نسير ساعات عديدة وعندما اشتدت حرارة الشمس ، توقفنا لنستريح تحت شجرة ونأكل التوت الذى التقطناه فى الصباح . ورأيت منظرًا رائعًا ، وصِحْتُ : «آما» ، انظرى» .

«ما هذا؟» .

أشرت إلى شجرة أكاتا كبيرة على بعد بضعة أقدام منا ، انظرى على القصعات تحت تلك الشجرة . إنها مقلوبة وكل واحدة فوقها قطعة من الحجر .

أمسكت بذراعى «نحن بالقرب من قرية أشانتيه يا كوفى» .

وقفت «آما» ببطء وسارت إلى الشجرة . كانت ابتسامتها مشرقة مثل الشمس . «القصعات المقلوبة عادة أشانتيه ، والناس يأتون هنا ليصلوا من أجل صحتهم والمحاصيل ويتركون القرابين تحت شجرة الأكاتا» .

أخذنا نرقص فى سعادة غامرة وقد وضع كل منا ذراعه فى ذراع الآخر فرحًا . وقلت بانفعال : «هيا نبحث عن القرية . نستطيع أن ننام هناك ولا نقضى ليلة أخرى فى الغابة» . وكانت أقدامنا وقلوبنا خفيفة ونحن نسير عبر الطريق . أخذت أعزف على الناى وكانت نغمة مرحة ، وارتجلت «آما» كلمات تتوافق مع نغمتى . وغنت «نحن عائدان إلى أهلنا ، الذين سيساعدوننا لنجد بيتنا» .

كنا قد مشينا فترة قصيرة فقط عندما توقفت عن الغناء ، وقالت : «أسمع أصواتًا مثل أصوات أطفال يلعبون» .

سألتها وقلبى يفيض من الفرحة «أين؟» .

مباشرة ، وراء أشجار الأرز تلك ، حيث توجد القرية الأشانتيه .

وبينما كنا نسرع نحو أيكة الأشجار ، سمعنا صرخة قرد وحفيف الأوراق خلفنا . التفت حولى مذعورًا وعاجزًا عن الكلام بينما تسمرت ساقى فجأة . فقد وجدت نفسى أنظر مباشرة فى عينىّ شارو الغاضبتين .

الفصل الثامن

الساحل

كان برفقة شابو رجلان أسودان يرتديان زى البيض بنطلونات ضيقة وحذاء ذى رقبة أسود طويل . كنت عرفت أن السود الذين يلبسون بهذه الطريقة عادة متورطون مع تجار العبيد البيض ، وهؤلاء الاثنان لم يكونا استثناء .

أمسك شابو «آما» وأشار بيده إلىَّ بدأت أجرى ، ولكن أمسك أحد الرجلين بذراعى ، فجعل الفلوت يسقط منى .

قال شابو : «خذه وأعطنى ما اتفقنا عليه» . ناوله الرجل كيسا وأخذ شابو يُعد العملات النقدية تجمد دمى وأنا أشعر بصدى تجربتى الأخيرة مع أويونج» .

التفت شابو إلى «آما» التى كانت ترتجف وتبكى ، بينما كانت تحاول إخفاء وجهها .

أعرف أنك هربت فقط بسبب هذا الشيطان الأشانتى الصغير . قولى لى ، هل أنت تتبعين الحق؟ إذا لم تكونى كذلك فاذهبى إذن معه وكونى جارية للأجانب . هل تفضلين أن تكونى جارية من أن تكونى ابنة ضمن أهل بيتى؟» .

صفعها فاندفعتُ نحوه ، و لكن أحد الرجلين ضربنى فلم أستطع أن أحميها .

أمسك بذراعها : «أنت من أهل بيتى ونساؤنا لا تهرب» .

أخذت «آما» تبكى بمرارة وشعرت بكل آلامها . فقد أصبحنا مثل أخ وأخته وكنت أنا السبب فى مشاكلها . وبيدى الطليقة جذبت كيسى الذى به التمثال الذهبى من حول خصرى وناولته لها .

قلت لها : «لاتنظرى للخلف . اذهبى معه» . فقد هُزمت ، لأننى فى كل مرة حاولت أن أعود فيها لأسرتى كنت أقع فى مشاكل أكبر .

صرخ فىّ شابو : «إنها لا تحتاج نصائح منك» التقطت «آما» السبيكة ونظرت إلىّ بحزن .و بعد ذلك شابو ، أطبقت على التمثال الذهبى بيدها والتقط شابو الناى وناوله لى . «خذ ، لقد دفعت ثمنه من روحك ، والآن أنت تخص هذين الرجلينْ» .

وبحمل ثقيل على قلبى أخذت أسير ساعات طويلة بين الرجلين - إلى أين ، لم أكن أعرف . لم نتوقف للراحة . وكان الرجلان يتحدثان لغة غريبة علىّ . وعند الغروب وصلنا إلى مجمع بيوت صغير ، وأخذت إلى كوخ صغير حيث استرحنا أثناء الليل وأعطونى بعض الحساء وكنت أسمع الناس تتحدث بالخارج .

«قلت للرجلين لابد أن أغسل يدى قبل أن آكل» . ولكنهما لم يفهمانى ، ورفع أحدهما «القصعة» إلى فمى ، ولكنى رفضت أن آكل بالرغم من أنى كنت أتضور جوعًا ، وتركنى بمفردى ، واحتضنت الناى بين ذراعى وكأنه طفل رضيع . وانهمر الشعور

بالندم عليّ كالمطر . لم يكن ينبغى أن أتبع والدى إلى الغابة كان يجب أن أكون صبورًا وأبقى فى بيت «آتا» . لم يكن ضروريًا أن أطلب من «آما» الهرب معى .

وعندما بدأنا الرحلة اليوم التالى ، رأيت الشمس تشرق خلف التلال وفكرت فى عشيرتى . والآن كانت أبعد من ذى قبل ولم يكن هناك طريقة للهروب من مختطفيّ الجدد .

أخذنا مرة أخرى نسير ساعات عديدة ذلك اليوم . وتوقفنا عند جدول ماء حيث استطعت أن أغسل نفسى . وأكلت بعض السمك المجفف الذى قدمه لى الرجلان . بدا المكان الذى كنا فيه مختلفًا عما كنت معتادًا أن أرى . كانت التلال عالية وخضراء كانت بلدًا جميلة ، لو لم أكن مأخوذًا بعيدًا عن كل شخص وكل شىء أحبه ؛ لكنت سعيدًا لأنى هنا .

نمنا فى العراء تلك الليلة وقد أعد الرجلان نارًا ومأوى من الفروع والأوراق .

فى صباح اليوم الثالث عندما كنا نسير بعيدًا عن الشمس المشرقة ، لمحت قافلة هائلة من مئات الناس والماشية يشقون طريقهم إلى أسفل جانب التل . وعندما اقتربنا منهم رأيت رجالاً يحملون صررًا كبيرة من جلود الحيوانات ، وأنياب العاج ، وصناديق تخيلت أنها تمتلئ بالذهب . ولكن بينما كانوا يمرون ، صدمتنى رؤية المنظر المخيف خلف الحيوانات – حوالى مائة من الأولاد والبنات مربوطين

بالسلاسل لأحدهم الآخر من الخصر . ولم يكن أحد منهم يبدو أكبر من خمسة عشر عامًا .

كان يسير بالقرب منهم رجال يحملون البنادق وعرفت إلى أين كنا متوجهين . فهذه كانت قافلة تحمل الذهب والعاج والعبيد إلى الساحل . وقادنى الآسران إلى رجل يرتدى ثوبًا أبيض فضفاضًا ويحمله الخدم على أرجوحة شبكية . وكان رجل أبيض محمولاً بجواره . كنت أريد أن أخبره أننى ابن زعيم كبير ولا يجب أن أوخذ عبدًا ، ولكن الخوف وكل ما حدث لى قد جعلنى عاجزًا عن الكلام . وبدا أننى فى كل مرة أقترب من أن أنال حريتى وسعادتى ، أقع فى الأسْرِ ثانية . لقد فقدت بيتى وعائلتى وحتى نفسى . أصبحت عبدًا أرتدى مئزرًا قذرًا . ولم أكن أتذكر حتى مجرد شكل ثوبى الجميل .

وربطونى بسلاسل مع صبى آخر بينما كان الفلوت موضوعًا بأمان داخل مئزرى . قال لى الصبى شيئًا ، ولكنى لم أستطع أن أفهم لغته . ظللنا نسير باقى اليوم وكان الصبى يتعثر كثيرًا ، وظننت أنه ربما كان مريضًا . وبعد أن مر علينا شروق الشمس وغروبها مرتين أخريين مات الصبى وتركوه لابن آوى والصقور .

وفى النهاية ، بعد أن ارتحلنا ليوم آخر وصلنا إلى الساحل .

وكانت رائحة الهواء المالحة غريبة على . فتلك أول مرة فى حياتى أذهب فيها بالقرب من المحيط . كنت أرى فقط جداول الماء العذب والبرك الصغيرة فى مملكتى بالغابة .

وقادونا إلى مبنى مصنوع من سيقان الخيزران ومغطى بسقف من القش . وكانت رائحة الأجسام الآدمية غير النظيفة قد جعلتنى غير قادر على التنفس ورقدت على الأرض الطينية مربوطًا بالسلاسل مع غلام آخر . أمسكت الفلوت وظللت أبكى حتى غلبنى النوم . وفى الصباح التالى أعطونى بعض الثريد لآكله ، ولكنى رفضته بالرغم من أنى كنت واهنا وجائعًا .

كان المكان يعج بالرجال والنساء ، وحتى الرضّع الذين يتشبثون بأمهاتهم . وعندما أخرجونا من حظيرة العبيد ؛ آلم الضوء الساطع عيناىّ مثلما آلمتهما الأشياء التى رأيتها .

كانت المبانى الواقفة فى الهواء الحار الرطب مصنوعة جميعها من سيقان الخيرزان مثل المبنى الذى كنا مسجونين فيه . والذى صدمنى أكثر هو الأعداد الكبيرة من الرجال البيض فى بنطلوناتهم الغريبة الضيقة ، وأغطية الرءوس العريضة المصنوعة من القش . رأيت رجالاً سودًا كانوا يرتدون ملابس البيض ويحملون البنادق البدائية .

وقادونا بعيدًا عن صفوف المبانى نحو الماء .

لقد أخذوا إلى الشاطئ عدة مئات من الرجال والنساء المربوطين فى الأغلال الضخمة الحديدية حول رقابهم ورسغهم ، أما مجموعتنا فقد كانت تتكون من الأطفال فقط .

قادنا الرجل الأبيض نفسه الذى كان فى القافلة نحو الشاطئ وعندما وصلنا هناك ، رأيت لأول مرة فى حياتى حصنًا وفى أعلاه

مدفع فى مواجهة الماء . ورأيت أيضًا بيوت الرجال البيض التى تطفو على الماء تعلو وتهبط على الأمواج . وتدفقت الدموع على وجهى وأنا أتحسس الفلوت تحت مئزرى واستدرت لأنظر إلى الشمس . كان الصبى الذى خلفى يبكى أيضًا .

عندما وصلت الشاطئ ، اصطف الرجال والنساء وحتى بعض الأطفال الصغار إلى الحصن ، وفحص الرجال البيض البشر المربوطين بالأغلال بنفس الطريقة التى كنت أرى الرجال يفحصون بها الماعز أو الأبقار قبل شرائها . . يضغطون على ذراعي الرجل ، ساقيه ، وبعد ذلك يحدقون فى فمة وأذنيه . . ويجذبون جفنيه لأعلى وأسفل للنظر فى عينيه . وصرخ في وجه من يفحصه بلغة غريبة ، ولكن الرجل الأبيض صفعه بقوة وصرخ فيه . وبالرغم من أن السجين كان قويا وممتلأً بالصحة ،لم يكن هناك شىء يستطيع أن يفعله لأن يديه وقدميه مقيدتان .

لحظة واحدة كانت أكثر رعبًا من غيرها عندما رأيت رجلاً أبيض أخر يمسك بقطعة حديد ساخن متوهج ويضغطها بين عظمتى كتف السجين . فصرخ من الألم بينما كان أحد السود الذين يرتدون زىَّ الرجل الأبيض يمسح بزيت النخيل العلامة التى تركها الحديد المتوهج .

واستمر الرجل الأبيض جيئة وذهابا فى صفوف الرجال والنساء يُعلِّمهم بنفس قطعة الحديد . وصرخت النساء عندما أرغموهن على خلع أرديتهنَّ حتى يفحصوهن أيضًا . أشحت بوجهى ، وأنا أشعر بنفس الخزى الذى شعرن به .

وبسرعة قادونا بعيدًا ، وبدلا من أن نذهب لأحد الزوارق الطويلة التى تنقل المساجين لبيوت الماء ، أُخِذنا وراء الحصن إلى بحيرة ضحلة . هناك فكوا الأغلال عن الأولاد الذين كانوا منفصلين عن البنات ، وسمحوا لهم بالاستحمام . وبحرص وضعت ملابسى فوق الناى وسكبت الماء فوقى . وكان الصبى المربوط معى بالسلاسل فى حظيرة العبيد يتحدث الفانتية ، والتى كنت أستطيع أن أفهمها لأنها كانت شبيهة بالأشانتية ، وقد أبلغنى «إننا ذاهبون فقط إلى بيت الرجل الأبيض العائم من أجل أن نعمل لفترة وبعد ذلك سوف يعيدوننا إلى أسرنا» .

شعرت بالأمل . وعندما انتهينا من الاستحمام أعطونا زيت النخيل لنمسح أجسامنا به ، وبعد ذلك جعلونا نجلس فى بستان من أشجار النخيل وأعطونا وجبة لذيذة من حساء السمك . ولأول مرة ذقت لحم جوز الهند الذى أحببته ، وأكلنا الكمية التى نريدها وقد أكلت بشهية لأننى اغتسلت .

وبعد أن اغتسلنا وأكلنا جيدًا واسترحنا ، جاء إلينا نفس الرجل الأبيض الذى كان مع القافلة وابتسم وهو يتحدث للحراس .

سقط قلبى عندما ربطونا مرة ثانية بالسلاسل معًا ، وقادونا إلى الشاطئ والزوارق الطويلة المنتظرة .

لقد جاء دورنا ليفحصونا كالحيوانات ، وبكت الفتيات وحاولن تغطية عريهن . وأغلقت عينى حتى لا يكون علىّ أن أنظر إلى العينين الزرقاوين المخيفتين للرجل الذى يفحصنى .

فكوا أغلالنا ودفعونا إلى الزوارق الطويلة المنتظرة . وحاول عدة أولاد الوقوف والقفز ، ولكن الرجل حامل المجداف ضربهم . وقد غطت الزوارق الطويلة التى امتلئت بالرجال والنساء المقيدين بالأغلال سطح مياه الساحل ، فى طريقها إلى السفن المنتظرة ، لماذا كان هؤلاء الرجال يحتاجون كل هذا العدد من الناس للعمل فى بيوتهم العائمة؟ ربما ينوى هؤلاء أن يأكلوا بعضًا منا مثلما قالت لى «آما» . وارتعدت من مخافة ألا أرى بيتى وعائلتى الحبيبة ثانية .

حاولت أن أقف فى الزورق الطويل المتأرجح . إننى أفضل الموت على الذهاب مع هؤلاء الغرباء . ودفعنى أحدهم إلى أسفل ثانية . ولكن فى تلك اللحظة التى وقفت فيها رأيت وجها مألوفًا فى أحد الزوارق المجاورة لنا . .«أويونج» بثوبه الأزرق المتسخ والممزق وقيد حديد ضخم حول رقبته .

اندفعت واقفًا ثانية ، وصرخت «أويونج» أدار رأسه ونظر إلىّ للحظة قصيرة ، حتى دفعنى لأسفل ثانية أحد الرجال الذين يجدفون . لقد تغير مصير «أويونج» بسرعة مثلى . لابد أن أحدًا اكتشف أنه ليس تاجرًا ثريًا من الشمال ، وإنما هو مجرم فباعه .

كان «كويسى» قد قال لى : إن «أويونج» بالتأكيد سيلقى عقابه على مافعله . ربما أن «آما» هى التى كشفت أكاذيبه .

ولكن أُدهِشْتُ عند رؤية «أويونج» ، مع ذلك لم تكن شيئًا مقارنة بالرعب الذى سيطر علىَّ ونحن نقترب من السفينة المنتظرة .

الفصل التاسع

سفينة العبيد

أغمضت عينىّ وأخذت أمر بأصابعى على الدوائر والخطوط المنقوشة على نايى . لم أرد أن أرى ما يقف أمامى أو حتى أصدق أنى على بيت الرجل الأبيض العائم المفزع .

عندما فتحت عينىّ رأيت فقط ثقبًا أسود بينما قادنى نفس الرجل الأبيض الذى كان فى القافلة ، أنا وحوالى مائة من الأطفال الآخرين إلى قاع السفينة . وأخذ يصيح فى ملاحى السفينة وهو يقوم بالإشراف عليهم ويحشرنا جميعًا فى أماكن ضيقة جدّا للنوم . وحتى أنا لم أكن أستطيع أن أقف منتصبًا فى ذلك المكان الصغير ، ولم يقدر أيضًا أطول الأولاد والبنات أن يتمددوا مستقيمين . كنا نرقد فى حجر أحدنا الآخر .

وعندما مرَّ أحد أفراد طاقم السفينة بمكان نومى ، رأى الناى ومد يده إليه ، فقضمت يده ، فأمسك بى من رقبتى وألقى بى على الأرض . ارتطم رأسى بالأرض فى شدة حتى إننى فقدت وعيى .

عندما أفقت وجدت نفسى على ظهر السفينة ، وظننت أننى دخلت مملكة الموتى وأنها كلها ماء .

ملأت مرارة لاذعة فتحتى أنفى وفمى عندما حاول أحد الرجال أن يدفع كوبا من سائل ذى رائحة فظيعة بين شفتى . أطبقت أسنانى رافضا أن أشربه . أخذ شاب - ظننت أنه أشانتى - الكوب

من الآخر وعرض علىَّ السائل . فقبلته وشربته شعرت بحرقة شديدة أثناء نزوله . أخذ الرجال يضحكون عندما بصقت ولفظت وسعلت . ولكن بدا الصبى كأنه يريد أن يقول لى شيئًا . تحدثت إليه بلغتى ظنا منى أنه سيفهم . نظر إلى بتعاطف ولكن لم يفهم ما قلت .

تحدث إلىّ ثانية وتعجبت لماذا يستخدم لغة الرجل الشاحب ولم يحدثنى باللغة التى أعرفها . وبعد ذلك ناولنى «قصعة» من ثريد فظيع الرائحة ، وهو يقول كلمة باللغة الفانتية لآكل ، ولكنه نطقها بطريقة غير عادية حتى إننى لم أفهمه فى البداية . أجبته باللغة الفانتية قائلاً له إننى لا أستطيع أن آكل بدون أن أغسل يدى أولاً . ولكنه لم يفهم ما قلته . ظل يضع الطعام أمامى بينما كان يشير إلى شىء مخيف شكله مثل طبلة طويلة وحبل ملتف عليها . وأخذت عيناه تنتقل من علىّ إلى الشىء الذى مثل الطبلة . استمررت فى رفض الطعام وأخذت أمسح يدىَّ معًا مبينًا أننى علىّ أن أغسل يدى أولاً فهز رأسه .

قام أحد ملاحى السفينة بدفعه جانبًا وحاول أن يفتح فمى المطبق . إذا برئيس السفينة يتقدم نحونا ويدك الأرض بقوة وكان وجهه عريضًا مشوبًا بحمرة كثمرة المانجو . وأخذ ملاحو السفينة يفرون أمامه كالفئران . كان صوته أفظع من أصوات الآخرين . وبناءً على أوامره سحبنى أحدهم إلى شىء وربطنى فيه وأخذ يضربنى بسوط لاسع وأنا أصرخ وأبكى من الألم . لم يعاملنى أحد بهذه الوحشية من قبل . وفهمت عندئذ لماذا كان الولد يخبرنى أننى إذا لم آكل سوف يضربوننى .

ولكنى كنت عـاقـدًا العـزم على ألا آكل الثـريد ذا الرائحـة الفظيعة وإذا كانت خطتهم أن يطهونى ويأكلونى ، فسوف أحرص على ألا أكون طعامًا شهيًا لهم .

لا أعرف كم بقيت راقدًا هناك ملطخًا بالدماء وواهنًا وعاد نفس الرئيس ذو الوجه الذى يشبه المانجو وأمر أحد رجاله أن يفتحوا فمى بالقوة ، وحاول أن يدفع الطعام فيه ، تقيأته وضربونى ثانية . وكنت أتمنى أن أموت وبديت أتأرجح جيئة وذهابا بين عالم الأحياء والأموات . رأيت والدى وحلمت أننى وأخى كويسى عائدان إلى قريتنا . سمعت آما تبكى ولكن عندما استيقظت وجدت نفسى مغطى ببطانية قذره فى أحد أركان السفينة ، وكنت أرتعد من البرد للحظة وفى الأخرى أحترق من الحمَّى .

وبعد ذلك رأيت منظرًا غريبًا . فقد صعد الأطفال الذين كانوا فى قاع السفينة خارج سجن السفينة ، وكانوا يحملون «قصعات» صغيرة من الصفيح وكان الطاهى الضخم البدين يعطى كلاً حصة من العصيدة الفظيعة . وكانت أجنحة البيت العائم البيضاء العملاقة ترفرف فى الرياح وكنا نتحرك . وفجأة اخترقت صرخات الهواء المالح عندما قفزت فتاة من فوق السفينة إلى البحر . وامتدت يداها نحو السماء وبعد ذ لك اختفت تحت موجه .

حاولت فتاتان أخريان وغلام أن يتبعوها ولكن أحد البحارة سحبهم بعيدًا عن حافة البيت العائم قبل أن يقفزوا .

وحاولت أن أنهض حتى أستطيع أن ألحق بهم ، لأن هذا هو السبيل الوحيد للخلاص من هذه الحياة المرعبة . ولكن فى حالتى الواهنة دارت رأسى وسقطت ثانية على البطانية القذرة . وأخذت أتلو صلاة أشانتية من أجل روح الفتاة .

عمت الفوضى والعراك حينما حاول أفراد طاقم السفينة وهم يصرخون ويصيحون أن يعيدوا الجميع تحت إلى السجن ، بينما اندفع المزيد والمزيد من الأطفال نحو الحافة وقفزوا إلى البحر . وعندما أعيد الأسرى الباقون إلى السجن ، أخذ القبطان يسير بخطى واسعة على ظهر المركب فى غضب شديد بينما توارى الملاحون خوفا منه . ونظرت حولى أبحث عن الصبى الذى حاول مساعدتى ، ولكنى لم أره .

كنت لا أزال أتألم من الضرب وأحسد الأطفال الذين ألقوا بأنفسهم فى المحيط . فهم سوف يعودون بالموت إلى أجدادهم .

كانت الشمس تغرب . . بعد وقت قصير سينتهى هذا اليوم الطويل الفظيع . كان الصوت الوحيد الذى أسمعه هو صوت الماء يرتطم بجوانب السفينة . وفى الوقت الذى حل فيه الظلام ، سمعت أصواتًا أخرى : هى أصوات الأطفال فى سجن السفينة ، وأصوات الرجال وبعد ذلك صوتًا مألوفًا . . الناى . كان شخص يعزف عليه نغمة منخفضة غريبة . ففى وسط كل آلامى وارتباكى ، لم أدرك أنه لم يعد معى . عرفت صوت آلتى الموسيقية بالرغم من أن الناى يعزف لحنًا لشخص غريب .

أسندت نفسى على مرفقى وأخذت أحدق على ظهر المركب المظلم ، وفى ضوء الفانوس رأيت مجموعة من الملاحين مع الصبى الذى كان ساعدنى . كان بحارًا يعزف على الناى . وكان يجلس معهم غلام آخر ، رأسه يغطيه شعر كثيف أصفر ووجه نحيل أبيض . كان فى حوالى الرابعة عشرة وبدا مخلوقًا غريبًا لى لأنى لم أر من قبل صبيّا أبيض . . رأيت فقط رجالا بيضًا . كان من الصعب علىّ ، فى ذلك الوقت أن أفكر فيه كإنسان حقيقى . . الوجه الذى ليس له لون والشعر الأصفر . وقد شعرت بالنفور والانجذاب فى آن واحد .

وأسرع إيقاع الأغنية ، وأخذ الغلام ذو الشعر الأصفر يقفز ويدق بقدمه على إيقاع الموسيقى الصادر من الناى . وكان الرجال يصفقون ويغنون ، بينما الغلام يرقص . وقد تذكرت بحزن أغنيتنا ورقصنا يوم احتفالنا السنوى .

وقفت على ساقى المرتعشتين وتعثرت وأنا أسير نحو المجموعة . «هذا نايى» ، قلت بصوت أجش والدموع تنهمر على وجهى . وفى البداية لم يلاحظنى أحد وبعد ذلك نهض الغلام الأسود وجاء نحوى . ظللت أصيح «هذا الناى» توقف الرجال عن الغناء ، وذلك الذى كان يعزف بفلوتى أبعده عن فمه وأمسكه كأنه عصا وأخذ يهزها فى وجهى وهو يضحك .

كف ذو الشعر الأصفر عن الرقص وقادنى الصبى الأسود ثانية إلى الركن الذى أنام فيه ، وهو يتحدث إلىَّ لتهدئتى . ومرة أخرى سمعت بضع كلمات مثل الفانتية . قال : «إهدأ وإلا يضربونك» .

بدأ الرجل يعزف ثانية ، ولكن لم يعد ذو الشعر الأصفر يرقص ، وتبعنا ، وتحولت بعينى عنه ، لأنه بدا لى أنه ليس إنسانًا حقيقيًا .

رقدت ثانية على البطانية وأنا لا أزال أبكى . حاول كلا الغلامين مواساتى . لم أستطع أن أنظر إلى الطفل الأبيض ، بشعره الأصفر الذى كان يشبه غطاء رأس مصنوع من شعر رقبة الفرس ووجهه الذى يشبه القناع .

لم أكف عن البكاء حتى توقف الرجل عن العزف ، تحدث الصبيان لأحدهما الآخر وغبت أنا فى نوم قلق ومعذب ، أحلم بتلك الليلة التى أعود فيها أنا وآما إلى قريتى .

فى الصباح التالى ، استيقظت عندما هزنى أحدهم بشدة . وعندما نظرت فى وجه ذى الشعر الأصفر النحيل ، تذكرت أين أنا ، أعطانى الناى وهو يبتسم ابتسامة عريضة . ارتفع الغضب داخلى مثل بحر هائج . خطفته منه واحتضنته بين ذراعى . لقد كان كل ما تبقى لى من حياتى السابقة ، لا يهم ما يحدث فإنى لن أترك أى أحد يأخذه منّى ثانية .

الفصل العاشر

الأصدقاء

حاولت أن أحسب عدد الأيام وموقع الشمس . ولكن ذلك كان صعبًا لأني كنت مريضًا جدًا ولم أكن أستطيع أن أحدد كم من الوقت مضى ، بينما أنا نائم .

فحصني القبطان وأمر الصبي الأسود أن يعطيني نفس نوع السائل المر الذي أعطوني إياه في أول يوم لي هنا ، وشربت ، لأني كنت ضعيفًا جدًا لا أقوى على الرفض . ووثقت بالغلام الذي بدا كأنه جاء من قريتي .

رأيت شابا يرتعد ويلوي جسمه كالكُرة راقدًا بجواري . وكان هناك عديد من الأطفال يرقدون على ظهر السفينة ، تنتظر أرواحهم الموت ليخلصهم .

وحملق القبطان فيّ ، وصاح على الطاهي الذي وقف أمام مرجل يغلي ، جعلت فكرة تناول هذا النوع من الطعام معدتي تنقلب وشعرت بالغثيان وحاولت أن أجلس ، ولكني كنت واهنا جدًا . صرخ الطاهي وظهر الغلام الأسود ، وناولني «القصعة» الصفيح وقال بلغة الفانتي «كُل ، كُل وإلا سيضربونك» .

وقف القبطان فوقي ممسكًا بالسوط المؤلم في يديه . لم أكن أستطيع تحمل مزيد من الضربات ، لذلك وضعت الطعام في فمي . ساعدني الخوف والإرادة أن أبقي الطعام في جوفي . ومشى

القبطان بعيدًا بينما كان الغلام ينظر إلىّ . وشعرت برائحة كريهة ، كأنى أكلت لحم ميت من سجن قاع السفينة . وأحسست بالطعام يصعد من معدتى . وبدأت أتقيأ . أسرع الغلام يجرى وعاد بسرعة ومعه دلو وقطعة قماس مبتلة نظيفة ، تقيأت الطعام الذى ابتلعته بالإكراه ومسحت يدى بالقماش .

أفرغ الدلو وبعد ذلك عاد ومعه قصعة أخرى من العصيدة . هززت رأسى بالرفض . وبسرعة دفع الطعام جانبًا بيد متسخة ، ورأيت لحم جوز الهند وقطعة سمك . وفهمت كان على أن أتظاهر أنى آكل العصيدة بينما فى السر كنت آكل جوز الهند و السمك الذى أعطاه لى . وعندما لم يكن أحد ينظر ألقى بالعصيدة من فوق السفينة وذهب بجرأة إلى الرجل الذى أعطانى الطعام ليريه طبق صفيح فارغ . وكدس الرجال مزيدًا من العصيدة فى الطبق وأعطاه الغلام لى وهو يغمز بعينه ، ويناولنى فى نفس الوقت جوز الهند والسمك . ومرة ثانية ألقى بالعصيدة ، عندما انتهيت من أكل السمك وجوز الهند .

عاد إلىّ ثانية وأشار إلى نفسه وهو يقول بلغة فانتية مكسرة «اسمى جوزيف» .

لابد أنى نطقته خطأ لأنه ضحك وقال الاسم ثانية «جوزيف» .

فكررت «جوزيف» : وابتسم وهو يومئ برأسه .

أشرت إلى نفسى وأنا أقول «كوفى» .

فكرره بطريقة نطق غريبة وكان دورى أن أضحك .

وسألته باللغة الأشانتية «هل سيأكلوننى؟» .

لم يفهم . وأشرت إلى نفسى وأنا أقول بالفانتى ، يأكل ، يأكل . . فنهض بسرعة وعاد بالمزيد من جوز الهند . وهززت رأسى وأشرت إلى نفسى وطاقم السفينة .

وشيئًا فشيئًا فهم ما كنت أستفسر عنه ، وألقى برأسه الطويلة للخلف وضحك ، لم أفهم ـ كيف أن أكلهم لى شىء مضحك . وبعد ذلك ساعدنى لأن أفهم ـ مستخدمًا خليطًا ضعيفًا من لغتى التيوى والفانتى وكلمات أخرى لم أستطع تمييزها على الإطلاق ، وبحركات اليد والجسم أنهم لن يأكلونى .

وأدركت أنه تعلم بعض الكلمات من اللغات التى يتحدث بها الأسرى الآخرين الذين يقابلهم على السفن ، وإنما اللغة التى يتحدثها بصورة طبيعية أكثر هى لغة الرجل الأبيض .

«جوزيف» صرخ الطاهى البدين وهو يقلب المرجل . فقفز جوزيف وجرى . وكررت اسمه الغريب مرارًا وتكرارًا . لقد كان من قبيل الراحة لى أن أعرف اسم شخص واحد على الأقل فى هذا المكان . . وأن يعرف ذلك الشخص اسمى . . حتى وإن لم يستطع أن ينطقه جيدًا .

رأيت ذا الشعر الأصفر ثانية ، وكان يشد ويسحب فى الحبال بينما نفس الرجل الذى كان قد أخذ الناى ، يصيح فيه ويضربه على رأسه وأذنيه . وقد أدهشتنى وحشية هؤلاء الناس . جذب جوزيف بابًا على أرضية ظهر السفينة ، وضاقت نفسى عندما بدأت

الرائحة الكريهة التى لاحظتها قليلا قبل أن آكل ؛ تطوقنى كأنها بطانية قذرة . وشعرت بمعدتى فى فمى مرة ثانية وأنا أشاهد جوزيف وذا الشعر الأصفر ينزلان إلى عنبر السفينة .

كان الأطفال الذين يرقدون بجوارى ، لا يزالون ساكنين . كان القماش الذى يلف النصف الأسفل من جسمى ممزقًا ومتسخًا . . كم تمنيت أن أغتسل ويكون جسمى نظيفًا ثانية .

فى تلك الليلة أخذ نفس الملاح الذى كان معه الناى يدك بخطواته ظهر السفينة وهو يصيح . كان هذا الوقت عندما يشربون ويعزفون موسيقاهم . وجلس «جوزيف» وذو الشعر الأصفر مع مجموعة من الرجال وعندما لم يكن الملاح الغاضب ينظر إليهم ، كان ذو الشعر الأصفر وجوزيف يظهرون على وجوههم كراهيتهم له ويسخرون منه . لابد أن الرجل قد اكتشف للتو أن الناى قد فقد . لقد كنت أخبئه تحت بطانيتى ، وكنت عاقدًا العزم على ألا يأخذه أحد ثانية .

ونظرت خلسة فى الأركان المظلمة حولى ، أبحث عن مكان جيد لأخفى فيه الناى ، ورأيت أوعية كبيرة فى أحد الأركان وفكرت فى إخفائه خلف أحدها ، ولكنى لم أتحمل أن أترك الناى بعيدًا عن يدى .

صاح الرجل على ذى الشعر الأصفر ، الذى نهض وترك البحار يفتشه . وفتش جوزيف أيضًا . وعندما انتهى أمسك كلا الصبيين من خلف رقبتيهما وضرب رأسيهما معًا .

انفجر جميع الرجال من الضحك ، وكانت بطن الطاهى ترتفع وتنخفض مثل موجة ضخمة . وهَمّ الصبيان بالابتعاد ، ولكن أحد الملاحين ناداهما ، وجعلهما يؤديان شكلاً من التسلية لم أره من قبل أبدًا .

فقد جعلوا جوزيف وذا الشعر الأصفر يقاتلان أحدهما الآخر بينما كان الرجال يشجعون أحد الصبيّين أو الآخر . وصدمتنى هذه التسلية غير الإنسانية . وفى البداية بالكاد كان الغلامان يضربان أحدهما الآخر ضربًا خفيفًا ، ولكن أخذ الرجال يصيحون ويصرخون ويلوحون بإشارات التهديد إليهما . وكوَّر رجل أكبر سنًا ، - كانت الخطوط تجعد وجهه كأرض بور - قبضة يده وأشار إلى نفس الشىء الذى ضُربتُ عليه .

صفع ذو الشعر الأصفر جوزيف على وجهه ، وضربه جوزيف بشدة حتى نزفت أنفه . وكان الغلامان فى نفس الطول ، ولكن ذا الشعر الأصفر كان أضخم من جوزيف الذى كان طويلا ونحيفًا . وكان الرجال فى حالة حماس متأجج . . يصرخون ويقذفون بالعملات النقدية فى كومة .

بدا كلٌ من جوزيف وذى الشعر الأصفر كأنهما سيبكيان وشعرت بالحزن من أجلهما لأنهما كانا صديقين . لم أعد أتحمل النظر ، وإنما رقدت وأدرت ظهرى للعبة الوحشية ، وأفزعنى أن أتصور ماذا كنت سأفعل لو أجبرونى أن أنضم إلى هذا اللهو .

فى اليوم التالى كان وجه جوزيف متورمًا ، وكان هناك جرح بليغ على خد ذى الشعر الأصفر ، وعندما أحضر جوزيف طعامى ، وعن طريقة اتصال غريبة بحركات اليد وكلمات الفانتى هنا وهناك سألته

عن اسم ذى الشعر الأصفر ، قال جوزيف «تيموثى» وكانت ابتسامته مؤلمة عندما حاولت أن أنطق الاسم : «تيمو . . تيمو . . .» .

قال جوزيف : «تيم ، تيم» .

بينما كنا نتحدث اندفع الملاحون فجأة على ظهر السفينة كان العديد منهم يحملون ملاحًا آخر كان قد مات ، ونظرت فى رعب وهم يلفون جسد أحد الملاحين بالقماش ويلقونه من فوق السفينة إلى البحر بدون أن يرددوا صلاة واحدة على روحه . وبهدوء رددت صلاتنا لروح الرجل ، بالرغم من أنه لم يكن أشانتيّا ، ولكنه كان كائنًا حيًا ولابد من تهدئة روحه .

وسحقتنى تعاستى ، وكثيرًا ما فكرت فى القفز من فوق السفينة إلى البحر مثلما فعلت الفتاة ، ولكن الأمل فى رؤية أسرتى وآما ، أبقانى مرة أخرى فى عالم الأحياء . إن هؤلاء الناس يمتلكون سحرًا عظيمًا ، وكان السحر فى تلك الأجنحة الكبيرة التى تضرب الرياح ، إذا استطعت أن أتعلم السحر الذى يحرك البيت العائم هذا ، عندئذ سأستطيع أن أعود إلى وطنى .

بينما كان تيم يتجه نحو جوزيف أشرت إلى أحد الأشياء السحرية .

قال جوزيف : «شراع» .

كررت «شراع» : بدا أن الطريقة التى قلت بها هذه الكلمات الغريبة تضحكهما . قلد تيم طريقة نطقى وأشرت إلى شىء آخر من الأشياء الغامضة . . الشىء الذى يحملق فيه الناس طوال الوقت .

قال جوزيف : «ربع الدائرة» وكررت هذا . وأشرت إلى الشىء الذى ربطونى فيه وضربونى عليه عندما جئت على السفينة فى البداية .

قال جوزيف : «الرافعة» . وبعد ذلك أشرت إلى ركن مكدس فيه بنادق وسيوف قصيره و«سكاكين» كنت أعرف ما هى تلك الأشياء وفيم تستخدم ، وتحولت بنظرى عنهما عندما تذكرت الطريقة الوحشية التى قتل بها أبى وأخى .

وصرخ أحد الملاحين مناديًا «جوزيف ! تيم!» وجرى إلينا وهز ذراع جوزيف بقوة ، ركل تيم ركلة سريعة فى بنطاله . وأسرع الاثنان بعيدًا .

نظرت ثانية على السكاكين والسيوف القصيرة . ربما لو كان معى سلاح لتمكنت من الهرب من هؤلاء الرجال . ولكن أين يمكن أن أذهب . أنا لم أعد أعرف أين تشرق الشمس وتغرب أو أين اختفت الأرض .

فى تلك الليلة عندما شرب الرجال وغنّوا فى ركنهم على ظهر السفينة . جلس تيم مع جوزيف ومعى . تحدث تيم وجوزيف معًا ، وكنت سعيدًا بصحبتهما ، بالرغم من أنى لم أستطع أن أقول لهما الكثير أو أفهم ماذا كانا يقولان . كنت أشعر بالفضول تجاههما .

هل كانا عبدين أم وُلدا حُرّين ؟ فى البداية كنت أظن أن تيم ابن أحد الملاحين ، ولكنهم كانوا يسيئون معاملته ويضربونه مثلما يضربون جوزيف . وكثيرًا كنت أجلس وأفكر فيهما . أين ولدا؟ أين أسرهما؟ هل يفتقدان بيوتهما مثلما أفتقد بيتى؟ كيف جاءا هنا؟

فى كل ليلة كان جوزيف وتيم يجلسان معى ويعلمانى مزيدًا من كلامهم ، وكنت أستمع للأصوات وسرعان ما استطعت أن أقلدهما جيدًا ، لم يعد تيم يبدو غريبًا بالنسبة لى . وبدأت أعتاد على شعره الأصفر وعينيه ذواتى اللون الأخضر الفاتح االلتين كانتا تضيئان عندما يسخر من الملاحين وراء ظهورهم .

سُمح لى أن أبقى على ظهر السفينة ، لأني كنت فى حالة ضعف جسمانى ؛ وذات مساء ، بينما كان جوزيف وتيم وأنا نجلس فى ركن على ظهر السفينة ؛ لاحظت أن القمر بدر . وكانت آخر مرة رأيته بدرًا فى الليلة التى وصلت فيها إلى بيت «آتا» . مرت أيام وليال عديدة منذ أن أخذت بعيدًا عن بيتى . وتساءلت أين أخى كويسى . لابد أن أمى وباقى العشيرة الآن يعرفون أن شيئًا فظيعًا حدث لكويسى ، مانو والوالد وأبى .

عندما استيقظت فى الصباح التالى ، بدت السفينة كأنها بالكاد تتحرك . ومع ذلك كان البحارة يندفعون بسرعة جيئة وذهابًا ، يسحبون الحبال ويربطون البراميل والحاويات الأخرى . وبدلا من تقديم ثريده الكريه كان الطاهى يجر مرجله إلى السطح السفلى من السفينة . كان القبطان ، ذو وجه أحمر مثل التوت ، يصيح بصوت عال كالنباح على الرجال أثناء صعوده وهبوطه من وإلى ظهر السفينة المزدحم . لم أر جوزيف أو تيم .

ودفع أحد البحارة الغلام الذى كان يرقد بجوارى فى العنبر السفلى من السفينة . وربما كان قادمًا إلىَّ بعد ذلك فتظاهرت أنى نائم وأمسكت بالناى المخبأ تحت البطانية .

هزنى شخص ففتحت عينىّ ورأيت وجه جوزيف القلق ، لم تكن عندى فكرة ما كان يحاول أن يخبرنى به . وحاول أن يشدنى ولكنى قاومت . لم أستطع أن أفهم لماذا كان يتصرف بطريقة غريبة هكذا . ولف البطانية حولى مثل الرداء وأشار إلى العنبر .

فصحت بلغتى : «لا أريد أن أذهب إلى العنبر السفلى» لم يستطع أن يفهمنى ولم أستطع أن أفهم الكلمات التى أخرجها من فمه ولكن عينيه كانتا تتوسلان إلىّ . لماذا كان يحاول أن يجبرنى على الذهاب إلى العنبر ذى الرائحة الكريهة؟

دفعنى وابتعدت عنه ، وأنا أمسك بالبطانية حول كتفى والناى تحت البطانية . وبعد ذلك وبنظرة غاضبة على وجهه أشار إلى السماء . كانت سحب داكنة عظيمة تجمعت مثل سرب من النسور ، فإله السماء يتحدث بلغة يفهمها كل الناس . كانت عاصفة تقترب ، ولكن مع ذلك لم أكن أريد أن أنزل إلى العنبر .

ورجعت إلى الوراء بعيدًا عن قبضة جوزيف ، وسقطت فى الركن الذى يحتفظون فيه بالأسلحة . ووضعت يدى على سيف قصير ، ولكن عندما رأيت النظرة المجروحة فى عينى جوزيف أسقطته من يدى .

وتوسلت إليه «أرجوك لا تجعلنى أنزل إلى العنبر السفلى . أنت صديقى»

لم يفهم كلماتى ، ولكنه فهم رغبتى والتقط حبلاً ولفه حول وسطه وبسرعة ربط حبلا آخر حول وسطى . وسحبنى ودفعنى أنا وهو إلى عمود سميك وربطنا نحن الاثنين فيه .

كانت السماء مظلمة كالليل بينما غطت السحب الشمس ودوى الرعد فوقنا . وارتفع جبل من الماء تحت السفينة مما جعلها تميل على أحد جوانبها .

وحاولت أن أصرخ ولكن فمى امتلأ بالماء بينما كان البحر يلتهمنا . اعتقدت أن هذه ليست عاصفة ، لأنى كنت رأيت عواصف فى مملكتى بالغابة . هذا هو انتقام الآلهة لأن الرجال الذين على السفينة لم يصلُّوا أبدًا على أرواح الموتى الذين ألقوا بهم فى البحر .

انفكت البراميل من القضبان وتهشمت على ظهر السفينة وأخذ الخشب والأشرعة تتطاير حولنا بينما تراقص البرق على ظهر السفينة .

وسمعت فى الرعد أصوات الآلهة الغاضبة وأخذت أصلِّى لأجدادى ليأتوا وينقذونى ، حتى لا تعاقبنى الأرواح على شىء لم أفعله .

وعندما هدأت العاصفة فى النهاية ، كان بعض البحارة يتمددون على ظهر السفينة وآخرون مصابين بالدوار ، يمسحون عيونهم وأذرعهم . رفع القبطان رأسه وهو يحملق حوله على الخشب والشراع والبراميل والحطام الملقى على ظهر السفينة .

وفكّنا چوزيف نحن الاثنين ، وزحفت إلى ركن . وفتح أحد الملاحين باب العنبر ونزل . وبسرعة عاد وأشار للملاحين الآخرين ليتْبعوه . وكان كل بحار يصعد حاملاً معه جثة طفل . وصليت من أجل الثلاثين طفلاً الذين رحلوا من هذا العالم إلى العالم الآخر .

نجا عشرة أطفال من بينهم أنا ، وجوزيف وتيم وكان معظم البحارة قد ماتوا لأنى لم أر إلا بعضهم فقط بعد العاصفة . وجثمت

فى ركن مع الأطفال الآخرين بينما الملاحون الآخرون قضوا باقى اليوم فى إصلاح الشراع وتنظيف السفينة .

وبعد العاصفة بعدة أيام بدأت أشم رائحة المرض والموت تغطى السفينة كالكفن ، أخبرنى جوزيف ، أنه مرض الجدرى . لم أعد أرى أولادًا آخرين فى مثل سنّى . كان الباقون فقط خمس فتيات فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرهن .

وفى كل يوم كانت تلقى جثث من فوق السفينة إلى البحر . لقد مات كل الأطفال الذين كانوا يرقدون بالقرب منى وبدأ الرجال الذين يعملون على السفينة يغطون أنوفهم وأفواههم بالقماش وكان العديد منهم أيضًا قد سقطوا مرضى ويموتون من المرض الذى على حلّ السفينة .

وبدا أن اللامبالاه قد تملكت الجميع . فالرجال لم يعودوا يشربون أو يغنون أو يشجعون تيموثى وجوزيف على الشجار . وكان الطاهى يغلى عصيدته على المرجل ببطء ، دون أن يصيح على جوزيف مثلما كان يفعل عادة . وكان الرجال الآخرون يقومون بمهماتهم ببطء . حتى الرياح نفسها كسولة ، بالكاد تحرك الشراع . ولم يكن القبطان يخور كالثور ، وإنما بقى فى مقره . وكان الرجل الذى كنت أسميه جالب الموت ؛ لأنه فى كل مرة فحص أحدًا كانت الجثة تحمل إلى أعلى لتلقى من فوق السفينة ، بدا خائفًا هو الآخر .

وعندما تحولت السماء والماء من اللون الأزرق إلى اللون الرمادى وأصبح الهواء قارسًا ، دخلتُ عالمًا جديدًا قاسيًا وكئيبًا .

الفصل الحادى عشر

سلعة تباع وتشترى

بوسطن، ماساتشوتسيتس

نوفمبر تشرين الثانى 1788

جذبت بطانيتى بشدة حول كتفى ، وأخذت ارتجف حتى ظننت أن أسنانى ستسقط من فمى . ولم أكن أشعر أبدًا من قبل بمثل هذا البرد ، ولا رأيت مثل هذه السماء الرمادية . وكنت متأكدًا أن الأرواح الشريرة قد كسبت المعركة فى البحر وأننا أُخذنا إلى صفهم .

عندما أصبح من الممكن رؤية الأرض من على بعد ، شد الملاحون الشراع الممزق ، وظلت السفينة على الماء بعيدة عن الشاطئ ، أخذ جوزيف وتيم والملاحون الباقون ينظفون السفينة ويدقون الألواح الخشبية المكسورة فى مكانها ، ويصلحون الشراع ، بينما أخذ الطاهى ينظف مرجله ومقلاته .

وحتى حلول الليل ظللت جاثما مع الفتيات على ظهر السفينة تحت البطانيات التى أعطانا البحارة إياها . وبعد ذلك نشر الملاحون الشراع وتوجهنا نحو الشاطئ . كنت متأكدًا أن كل عشيرتى تصلى لروحى ، حتى أعود سالمًا إليهم أو لأجدادى . ربما سأجد أبى ومانو أو حتى كويسى هناك . وحاولت أن أكون شجاعًا .

وقبل أن ننزل من السفينة ، أعطانا أحد أفراد طاقم السفينة أحذية جلدية صلبة . ومن شكلها اعتقدت أنها ستؤلم قدمى لأنى كنت معتادًا على ارتداء صنادل طرية من جلد الماعز . وفى البداية هززت رأسى رافضًا ، ولكن فى اللحظة التى لمست قدمى العارية المعبر البارد جدًا ارتديتها . كان البرد يتدفق فى كل جزء من جسمى .

وقادنا القبطان وبعض البحارة جميعًا ، ومعنا تيم وجوزيف أسفل شوارع ضيقة من الحصى . وكان أحد البحارة يحمل مصباحًا . ومشيت بعيدًا عن الظلال المخيفة للمبانى الخشبية المربعة التى كانت مصطفة فى الشوارع . ورأى جوزيف الخوف فى عينىّ وربت على كتفى وهو يقول : «حسنًا» وكان يقصد ألا أقلق . وأسرع بنا الرجال والقلق بادٍ عليهم ، وكأنهم يحاولون إخفاء شىء . وتمنيت لو كان جوزيف يستطيع أن يتحدث الأشانتية ، حتى يمكنه أن يخبرنى بما يحدث .

دخلنا بناء خشبيًا كبيرًا وفى الحال شممت رائحة خيول . نظرت حولى ورأيت صفًا من المرابط والخيول خلفها . هل أهل هذا المكان يربون الخيول داخل بيوتهم؟ وفحصت الجدران الخشبية والأرضية القذرة المغطاة بالتبن ، وتعجبت أى نوع من البيوت هذا . أين الحصر الملونة لنجلس عليها؟ والسلال التى نحتفظ فيها بالملابس؟ كيف يمكن أن ينام الناس فى نفس الغرفة الكريهة الرائحة مع الحيوانات؟

أخذ أحد الملاحين الفتيات بعيدًا . وكان الرجل الذى أدخلنا المبنى قد خرج وعاد ومعه دلو من الماء وبدا القبطان عصبيا ، وهو يتحدث مع الملاح الذى بقى معنا . وبعد ذلك قال شيئًا لجوزيف وغادر . نظفنا أنفسنا وارتدينا القمصان الثقيلة الخشنة ، والسترات الخارجية وبنطلونات كالتى يرتديها الجميع . تذكرت ثوبى الجميل وكدت أبكى . كانت تلك الملابس واسعة أكثر مما ينبغى علىّ أصابنى القماش الخشن بالحكة الجلدية . ولكنى استطعت أن أضع الناى خلسة فى أحد جيوب السترة .

ومشى رجل أسود كنت شاهدته فى الغرفة من قبل ، نحونا ومعه مقص معدنى لامع وقص شعرنا . كان له جلد أسود ناعم ووجه مستدير ، ذكرنى بصائغ قريتنا ، لذلك تحدثت إليه بلغة الأشانتى . أين أنا؟ ماذا سيحدث لى؟ هل تعرف؟ هل أنت من عشيرتى؟» .

وحملق فىّ وكنت أستطيع أن أقول من نظرته الخالية من التعبير إنه لم يفهم كلمة واحدة مما قلت . وتعجبت كيف يمكن أن يبدو هكذا شبه شخص من قريتى ، ومع ذلك لا يعرف الأشانتية أو الفانتية . قال جوزيف شيئًا له بلغة الرجل الأبيض ، وابتسم الرجل لى وأومأ فى اتجاهى .

نفس الرجل الذى قص شعرنا ، أحضر قشًا نظيفًا وأشار إلينا بالجلوس وأعطانا بعض الحساء . جلسنا على أكوام القش حيث غلبنى النوم سريعًا . وعندما استيقظت وجدت الفتيات يجلسن معنا ، كن يرتدين ملابس غريبة داكنة اللون وعاد القبطان مع رجل طويل جدًا وبدين . وخشيت من كومة اللحم هذه ذات العينين

الحادتين الباهتتين تحملق فينا . وكانوا قد اشتروني وباعوني بما يكفي الآن لأفهم ما يحدث . كان القبطان يبيعنا لهذا التاجر وفحصنا جميعًا ماعدا تيموثي ، وكنت ضعيفًا جدا على أن أصارع أو أعض عندما نظر في فمي من الداخل ولوى ذراعي .

أخذ القبطان والتاجر يساومان ، يصيحان ويشيران بأيديهما . ذكراني بنساء السوق في قريتي . وازداد وجه القبطان احمرارًا . وعندما كان يتحدث التاجر كنت أظن أن عروقه ستنفجر من فوديه .

وفي النهاية عندما انتهت الصفقة استرحت عندما علمت أن جوزيف وتيم وأنا سنظل معًا .

وعندما سار القبطان نحو الباب ارتعد جوزيف وكان وجهه اللطيف الأسمر متعبًا ومشدودًا . لأول مرة منذ أن عرفته ؛ بدا لي خائفًا .

وأخذت عينا تيم تنظر حول المكان كأنه سيقفز ويجري في أي لحظة . وبينما رأيت القبطان يسير بعيدًا عنا ، أدركت أنه تم بيعنا جميعًا لهذا الرجل الذي يشبه الحائط . وسرعان ما تركنا المبنى بعد القبطان .

وقادنا التاجر إلى حصان وعربة . وارتجفت وأنا أحملق في المناظر الغريبة والمخيفة أمامي . كان هناك ضوء النهار ولكن ليس هناك شمس مشرقة . أخذت السماء والبحر نفس اللون الرمادي كالدخان . والأشجار عارية وكانت أغصانها تمتد مثل أذرع نحيلة لمتسول نحو سماء بلا شمس .

ونظرت حولى وأنا آمل كأحمق أن أجد والدى ومانو فى انتظارى . ولكنى لم أر وجوها أعرفها أو أحبها . وبدت المنازل الخشبية والمحال والأزقة المظلمة قبيحة لعينى . كنت أريد أن أرى الجدران الطينية الحمراء التى فى بيت أسرتى ، والأشجار الخضراء التى تمدنا بالثمار والظل والجمال .

كنا لا نزال قريبين من المرفأ وحاولت أن أرى السفينة التى أحضرتنا هنا ، ولكنى لم أجدها .

ولاحظت مع ذلك أن جموع الناس بدأت تملأ الشوارع والسفن ترسو ، رأيت بعض الناس ، وجوههم مثلى ، وهم يرتدون نفس الملابس الكئيبة الثقيلة مثل البيض . وكانت النساء البيض هن الأكثر كآبة من الجميع ، فلم يكن شعرهن مزين بالأصداف الصفراء أو الضفائر ، لم تكن مزدانات بالجواهر ، وإنما فقط ملابس ثقيلة كئيبة مثل عالمهن الكئيب .

وسرعان ما تركنا الشوارع الضيقة . كان جوزيف وتيم وأنا والباقون منا نركب فى البرد فى مؤخرة العربة التى تجرها الخيول . كان التاجر موجوداً داخل العربة ، التى بجهلى ظننت أنها بيت صغير تجره الخيول ، وبينما كنا نرتحل عبر هذا الريف الأجنبى ، لم أرى شيئًا يشبه أى شىء أعرفه من قبل . كان ذلك عالمًا ميتًا ، بدون زهور أو أثواب ملونة مشرقة . تمنيت لو أرى وجوه أبناء عائلتى .

رأيت امرأة تسير علي الطريق حاملة سلة ، وتعجبت لماذا لا تحملها على رأسها . . مثلما يفعل أى شخص عاقل . وبالتدريج تلاشى وجهها الأبيض وظننت أنى أرى وجه أمى . تنفست

بصعوبة وشعرت كأنى أخنق عبراتى ، ورأيت وجوههم فى كل مكان : آفوا ، كويسى ، انتيم ، وحتى آما . وكنت أرى عينيها بوضوح مثل قمرين أسودين ، أغلقت عينىَّ بينما انهمر العرق على وجهى بالرغم من أننى كنت أشعر ببرد شديد .

وتوقفنا عند مبنى أبيض كبير ، مختلفًا تمامًا عن بيوتنا حيث يترك أحد الجوانب مفتوحًا على ساحة الدار . لاحظت أن تيم كان هادئًا جدًا ، ولكنه بدا منفعلا عندما دخلنا ، وبصعوبة كان جوزيف يسير لأنه كان مرهقًا من سعال شديد أصابه على السفينة وذهلت عندما دخلنا غرفة واسعة ذات أرضية خشبية لامعة . رأيت نارًا مشتعلة فى مدفأة ضخمة وكانت الغرفة ذات الرائحة الذكية ذكرتنى بالأعشاب التى كانت أمى تحرقها لتعطر بيتنا . كنت قد توقعت أن أشم رائحة حيوانات وأرى خيولاً داخل البيت .

رغم ذلك فقد أخافتنى دقات الساعة ، وصور الرجال التى على الجدران . هل كانت هذه أقنعة الموتى؟! لماذا كانت الصور تحملق فىّ؟ كان هناك ستة رجال بيض وامرأة واحدة ترتدى ثوبًا أسود يجلسون خلف مائدة طويلة ، ورأى جوزيف الخوف فى عينى ، وبالرغم من أنه كان ضعيفًا ، إلا إنه وضع ذراعه حول كتفى ، بينما تيموثى ، الذى وقف على الجانب الآخر من جوزيف ، كان يسنده ، وقادنا التاجر أمام تلك الوجوة غير المبتسمة وعرفت أننا سيتم بيعنا مرة أخرى .

كان جوزيف يسعل باستمرار ، وفى كل مرة كان التاجر ينظر إليه بعبوس ، ووقفنا فى منتصف الغرفة وكانت بعض الفتيات يبكين

بصوت خفيض . نهض أحد الرجال وكان رجلا طويلا نحيلا ذا وجه طويل شاحب اتجه ناحيتى . وفى الحال فتح فمى فقضمت يده بشدة . وأخذ الرجل يضربنى على رأسى ، ولكن التاجر أوقفه فى الحال . وبعد ذلك عنفنى هو نفسه .

ابتعد الرجل الطويل عنى وفحص البنات ، ونهضت المرأة التى كانت تحملق فينا جيدًا من مقعدها ، وفحصت بنتًا معينة هى التى لم تكف عن البكاء منذ أن تركنا السفينة ، وكنوع من الحماية وضعت البنت الأكبر ذراعيها حول الكتفين الصغيرتين المنهكتين لتخفف عنها .

لم ينظر أحد إلىّ أو جوزيف أو تيم . كان من الواضح أن جوزيف مريض وربما لأن تيم واحد منهم كان بإمكانهم أن يعرفوا حالته بمجرد رؤيته فقط .

وفى وقت قصير اشترى رجل البنات وأخذهن بعيدًا ، أما تيم وجوزيف وأنا كنا فقط الذين بقوا من السفينة . وكانت المرأة والرجل ذو الشعر الأسود والوجه المستطيل والخطوط الحادة التى حول جانبى فمه يحملق فى تيم وفىّ و بعد ذلك تحدث إلى التاجر . وبدا أن جوزيف سيبكى ، وأدركت فى هذه اللحظة أننا سوف نفترق . وبدأ جوزيف وتيم يتحدثان فى الحال وأخذا يتوسلان للتاجر ، وتمنيت لو عرفت ماذا كانا يقولان .

وأشار التاجر نحو جوزيف وهز الرجل رأسه بالرفض .

وسارت المرأة إلى ونظرت فى وجهى ، وبالرغم من أنى كنت لا أزال غير معتاد على بياض الوجوه حولى ، إلا أننى رأيت وميضًا من

التعاطف فى عينيها ، والذى - باستثناء تيم - لم أره فى أى من البيض الآخرين حتى ذلك الوقت . ولسوء الحظ لم أفهم كلماتها ونظرت إلىّ وإلى جوزيف وظلت تكرر ما كان مثل كلمة «أخ» .

نظرت إلى جوزيف وأومأ ، مكررًا نفس الكلمة ، لذلك أومأت أنا أيضًا وأنا أتمتم «أخ . . أخ» محاولا بقوة أن أنطق الكلمة .

وتحدثت المرأة بإسهاب للتاجر والرجل ذى الوجه المجعد ، الذى بدا أنه يتجادل معها . أخذت تتوسل إليه ليأخذ ثلاثتنا ، وكنت قررت أنهم إذا فرقونا فسوف أثير مشاكل حتى يتركونا نحن الثلاثة .

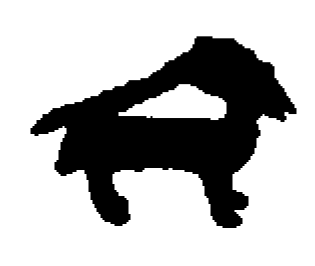
وأدار الرجل والمرأة والتاجر ظهورهم لنا ، بينما استمروا فى حديثهم . وكان عقلى منشغلاً بأفكار مخيفة عما سيحدث لى ربما بعد ذلك .

وفى النهاية أشار الزوجان لنا نحن الثلاثة لنتبعهما ، وعندما تبعناهما ؛ استولى علىّ رعب شديد . فأنا لم أعبر للجانب الآخر من المكان الذى اتجهت إليه أرواحنا عندما خرجنا من هذا العالم ، لن أرى والدى أو أى أحد من أجدادى الآخرين ، فقد أُخذت عبر البحار بعيدًا عن كل الذين أعرفهم وأحبهم إلى أرض الغرباء البيض الذين سيحاولون أن يجعلونى عبدًا ، لقد اختطُفت وأسرت .

وعندما تركنا بيت التاجر وتوجهنا إلى حيث ستبدأ حياتى الجديدة ملأ الحزن الشديد قلبى .

الفصل الثانى عشر

عالم جديد غريب



تبعنا الزوجان نحو أحد «المنازل الصغيرة» التى كانت فوق العجلات المربوطة فى الخيول .

فى تلك المرة سُمح لنا أن نركب بالداخل ، بينما قاد الرجل والمرأة الخيول بالخارج ، وبالرغم من أنه كان طريقًا مريحًا جدًا للانتقال إلا أنى كنت مستغرقًا فى أفكارى .

فحصت وجهىّ جوزيف وتيم وهما يحملقان من النافذة ، لم يكن يبدو عليهما الانزعاج على الإطلاق ، وإنما كانا يتحدثان بهدوء وهما يلاحظان الريف .

وتمنيت لو كانا يعرفان لغتى أو أنى أعرف لغتهما حتى يستطيعا أن يشرحا هذا العالم لى .

كم كنت أحمق ، شعرت بأسف أثناء سير العربة ، كان يجب أن أنتظر بصبر حتى يأخذنى «آتا» لبيتى . كان ينبغى أن أخبره أن ابنه أخذ الفلوت ، لم يكن ينبغى أن أقنع آما لتهرب معى . وكويسى لا يزال ينتظر . فكرت فى تمثالى الذهبى . الندم لا يفيد لم يكن بإمكانى أن أفعل شيئًا فيما حدث فعلا ، كان علىّ أن أنظر للأمام وليس للخلف .

كـان عليّ أن أتعلم كـيف أبقى حـيّـا فى هذا المكان ، وأن أجـد طريقًا جديدًا للعودة لوطنى . الشمس لم تكن تشرق فى هذا العالم الذى حملت إليه ، ولكن البحر الذى سافرنا فيه هو نفس البحر الذى يمكن أن يعيدنى لأسرتى .

ووقفنا عند مبنى خشبى كبير أبيض مشوب بالرمادى تحيط به بنايات أصغر على بعد . لم أستطع أن أرى الكثير من ضوء النهار الذى أخذ يتلاشى . ولسع الهواء البارد وجهى ، عندما كنا نصعد السلالم الأمامية ودخلنا بيتًا آخر .

سرنا إلى غرفة تشبه الغرفة التى كانت فى أول بيت دخلناه ، واسترحت لأنها لم تكن ممتلئة بالحيوانات ولم تكن رائحتها رائحة الخيول . وعندما وقفت فى الغرفة الباردة الكئيبة المليئة بالظلال بحيث إننى لم أكن أعرف ماذا كان فى الأركان ، شعرت بالحنين إلى الجدران الطينية الحمراء ، ودفء غرفة جلوس أمى . كانت الجدران والأرضيات مصنوعة من الألواح الخشبية ، مما ذكرنى بسفينة العبيد . وكان المكان المضىء الوحيد هو اللهب الأحمر والأصفر للنار المشتعلة فى المدفأة .

كنت منهكا وكان جوزيف وتيم يبدوان أنهما سيسقطان من الإرهاق أيضًا . ووقف الرجل وزوجته عاليين فوقنا كأنهما شجرتان . تحدث الرجل إلينا وبالطبع لم أفهم كلمة واحدة . أومأ جوزيف وتيم برأسيهما ، وتركنا الرجل واختفى فى غرفة أخرى من المنزل وابتسمت زوجته لنا قليلاً ، وهى تقودنا إلى ممر ، ثم إلى غرفة صغيرة .

أخرجت السيدة الأشياء اللازمة للنوم من أحد الأركان وأعد تيم وجوزيف ثلاث حشايا على الأرض الباردة ، وقالت بضع كلمات ثم تركتنا .وكنا نرجف ونحن نخلع ملابسنا ونعلقها على الخطاف ، وتحسست داخل سترتى لأتأكد من أن الناى لا يزال هناك وبعد ذلك سقطت تحت الغطاء ، منهكًا وجائعًا أكثر مما ينبغى لأفكر ماذا سيحدث بعد ذلك .

فى الصباح التالى هزنى جوزيف ليوقظنى ، ونهضت من تحت البطانيات وقفزت كالضفدعة عندما لمست قدمى الأرضية الخشبية الباردة ، وبسرعة ارتديت بنطالى الخشن - وسترتى - وتأكدت من وجود الناى فى الجيب ، وبينما كنا نطوى الفراش ، فزعت من صوت الجرس القرصى يرن خمس مرات ، وصوت فتاة تنادى ، كان تيم وجوزيف يفهمان ماذا كانت تعنى هذه الأشياء . تركنا الغرفة ودخلنا الممر الضيق . فتح جوزيف بابًا يقود إلى الخارج ، وكان مظلماً وباردًا وأنا أتبعهما إلى بناية صغيرة نقضى فيها حاجتنا . قال جوزيف «مرحاض خارجى» وهو يشير إلى بناية صغيرة مصنوعة من الألواح الخشبية سمعت ديكا يصيح ونحن نسرع عائدين إلى البيت .

سرنا إلى نفس الغرفة الواسعة الظليلة التى دخلناها اليوم السابق . ونظر الرجل إلينا بصرامة ، بينما كانت زوجته تجلس على الكرسى المجاور له ، تحدثت إلينا وتبعتُ جوزيف وتيموثى إلى الطرف الآخر من المائدة ، وبينما كنت أنظر حول الغرفة ، لاحظت شابة قصيرة وشاحبة جداً كانت تصب الطعام من مرجل حديد

موضوع على النار . ربما كانت هذه ابنة الزوجين . ولكنها كانت تبدو مختلفة جدًا عنهما لأن الاثنين كانا طويلين جدًا .

عندما جلسنا ، سمعت طرقًا على الباب فتحت الفتاة ، ودخل خمسة شبان يرتدون ملابس خشنة ، ويجرون أقدامهم إلى الغرفة . وظننت فى البداية أنهم أبناء صاحب البت .

انحنى الشبان باحترام للرجل وزوجته ، ولكنى تعجبت لماذا لا يبتسم الأبناء لوالدهم أو يقبلون أمهم عندما يدخلون البيت ، لاحظت أيضًا أن ملابسهم وأيديهم متسخة بالطين وبها ندبات ، هل يمكن أن يأكلوا بمثل هذه الأيدى المتسخة؟ لم يعيرونا اهتمامًا وهم يجلسون إلى طرف المائدة معنا .

ولاحظت ، عندما وضعت الفتاة قصعتين كبيرتين من العصيدة عند كل طرف من المائدة ؛ أنهم يطهون الطعام ويأكلون في نفس الغرفة . جلست الفتاة أيضًا معنا . وتساءلت لماذا لم تجلس مع أمها وأبيها ، وأين كانت زوجات الرجل الأخرى؟

عندما بدأ الرجل يتحدث ، أحنوا جميعًا رءوسهم ماذا كان يقول؟ جلست منتصبا ونظرت إلى أعلى رءوسهم جميعًا – بما فيهم رأس جوزيف . نظر جوزيف إلىّ وأشار لى أن أخفض رأسى أيضًا . وتظاهرت أننى لم أفهمه ، ما الذى أنحنى له؟ فلم أكن أرى ملكًا أشانتيًا بكرسيِّه الذهبى .

رفعوا رءوسهم وأكلوا صامتين . والتهم جوزيف وتيم طعامهم وبالرغم من أنى كنت أتضور جوعًا ، إلا أننى جلست أحملق فى

طبقى . كان على أن أعيش مثل الحيوان فى السفينة ، ولكن الآن وأنا أعيش فى بيت مرة ثانية ، رفضت أن أكون غير نظيف ، وقلت لجوزيف بالإشارة أننى أريد أن أغسل يدى . هز جوزيف رأسه قائلا باللغة الفانتية« تناول طعامك» .

حملقت بتعاسة فى طبقى ، تحدث جوزيف إلى الرجل ، أظن أنه قال له ما أريد . وصرخ الرجل علىّ لأ نى لا آكل ، وبعد ذلك صرخ على الفتاة التى أسرعت وأخذت طبقى وأعادت العصيدة ثانية إلى قصعة التقديم الكبيرة .

نظر جوزيف وتيم إلى فى حزن ، ولكنى لم أكن أستطيع الأ كل ثانية دون غسل يدى . . حتى لو كانت معدتى تعوى بصورة يرثى لها من الجوع .

وكان الرجال الآخرون يرفعون بصرهم أحيانا من الطعام للحظة ، ولكنهم كانوا يكملون الأ كل فى صمت .

وبعد الوجبه ترك الشبان الخمسة الغرفة ، وبقى الرجل هناك معنا ، وبدأت التعليمات تُلقى علينا .

تحدث الرجل إلينا بإسهاب ، وكان جوزيف يومئ طوال الوقت وينظر إلىّ بعصبية ، حملقت فى فم الرجل منجذبا لأسنانه المائلة للاصفرار والأصوات الغريبة لحديثه غير المفهوم .

عندما أنهى الرجل حديثه ، دخلت المرأة الغرفة ومعها مكنسة دفعتها إلى يدى ، كنت أعرف ماذا كانت تريدنى أن أفعل ، ولكننى تظاهرت أنى لا أعرف ، فقد كان هذا هو عمل النساء عندنا .

عندئذ أخذ جوزيف المكنسة منها وكنس ، موضحًا لى فيم تستخدم المكنسة . . وقد كنت أعرف ذلك . فتلك هى الطريقة التى كان الخدم ينظفون بها ساحة دارنا .

نظرت إليه وهو يسعل ، بينما كان يكنس ، لم أكن خادمًا أو عبدًا ولن يجعلنى أحد أؤدى ذلك النوع من الأعمال . وانتزع الرجل المكنسة من جوزيف ودفعها فى يدى ، وبعد ذلك غادر الغرفة آخذًا جوزيف وتيم معه . بقيت فى وسط الغرفة ممسكًا المكنسة . انحنت الزوجة وحملقت فى وجهى قائلة شيئًا لم أفهمه . نظرت فى فمها بفضول إذ كانت أسنانها صفراء مثل أسنان زوجها ، ولكن لم أستطع أن أراها . وبعد ذلك تحدثتُ إليها باللغة الأشانتية .

«أنا ابن زعيم كبير مهم وقد أخذت أسيرًا وأحضرت إلى هنا . إذا أعدتنى إلى أسرتى ؛ سوف يعطونك مكافأة كبيرة» .

فغرت المرأة فاها وتراجعت بعيدًا عنى . وعندما تذكرت كيف كان والدى معتادًا أن يقف عندما كان يعقد اجتماعات مع رؤسا ء القبائل الأقل منه ، تركت المكنسة تقع وطويت ذراعىّ وصلبت ظهرى .

تحدثت المرأة إلىّ وكأننى أعرف ماذا كانت تقول ، ولكننى وقفت هناك مصمما على ألا أستسلم ، بينما استمرت هى تثرثر . أى نوع من النساء هذه الحمقاء التى تتحدث لأناس لا يستطيعون فهمها؟!

لم يمض وقت طويل قبل أن يعود تيم وجوزيف منحنين من ثقل الكتل الخشبية التى حملوها وكدسوها بجوار المدفأة . لم أتحرك وكنت لا أزال واقفًا وذراعىّ معقودين ، والمكنسة واقعة بجوار قدمى وكأنى عدو مهزوم .

وفجأة دخل الرجل وراء تيم وجوزيف ، وأسرعت المرأة إليه ، وهى تصيح بغضب وتشير إلىّ .

رأيت عينى جوزيف بدا فيهما الخوف ، عندما تحدث الرجل بقسوة لى . وبحركة جريئة ، حتى أنا فوجئت بها ، وقف جوزيف بيننا والتقط المكنسة وبدأ يكنس ، دفع الرجل جوزيف جانبًا وعنَّفه .

لم أفهم كلماتهما ، ولكنى كنت أعرف أن جوزيف يحاول أن يحمينى وسيكنس بدلا منى . وفجأة شعرت بالذنب فبسببى ربما يعاقب ويُضرب . قلت فى نفسى ، لا . . لا أستطيع أن أترك هذا يحدث لصديقى .

والتقطت المكنسة وبدأت أكنس .

كف الرجل عن تعنيف جوزيف . ارتدت الفتاة ثوبًا خارجيًا ثقيلاً يغطيها من الرأس للقدم وأخذت سلة وخرجت . وخرج جوزيف وتيم مرة ثانية مع الرجل وواصلت أنا الكنس .

وبينما كنت أكنس جاءت المرأة وابتسمت لى بعطف . وبعد ذلك أشارت إلى الشىء الذى أكنس به وقالت :

«برووم » . مكنسة يدوية

كررت وراءها الكلمة بلطف وأنا أكبح غضبى . ربما ستكون لغة الرجل الأبيض مفيدة فى مساعدتى أن أجد حريتى .

وأشارت إلى أشياء أخرى فى الغرفة ، وهى تقول لى : «أسماءها : مخضة اللبن ، المغزل ، المائدة ، الخزانة ، أطباق ، أكواب ، ملعقة!!» .

كررت الكلمات وتذكرتها . نظرت حول الغرفة وأشرت إلى أشياء متنوعة وأخبرتنى ما هى . ولاحظت لأول مرة فراغًا فى الجدران الخشبية ، ومن هذا المكان كنت أستطيع أن أرى الأشجار العارية الرمادية الباردة والسماء الرمادية . وقالت : «نافذة» .

كررت : «نافذة» .

وأرتنى كيف تدق التوابل ، وتذكرت الطريقة التى كانت طاهيتنا تدق بها الجريش إنها تدقه بنفس الطريقة تقريبًا . واستمتعت بالرائحة العطرة للتوابل وأنا أدقها . وتذكرت أننى لم آكل وقدمت لى خبزًا . كنت أتضور جوعًا ، ولكنى مسحت يدىّ معًا لأوضح لها أنى أريد أن أغسلهما .

وعادت الفتاة من الخارج ، ووجهها متورد من البرد ، وسلتها ممتلئة بالبيض . خلعت ثوبها الثقيل وعلقته على شماعة خشبية . قالت السيدة للفتاة شيئا ما ، فأخذتنى إلى دلو ماء فى الممر حيث غسلت يدى ووجهى وبعد ذلك أكلت كل فتات الخبز الذى أعطته لى وأنا أشكرها باللغة الأشانتية .

قضيت باقى اليوم فى البيت مع الفتاة والمرأة ، أتعلم كيف أقطع الخضراوات ، وأعد الشاى ، وأجهز المائدة وأقوم بالعديد من الأعمال

المنزلية الأخرى . لم أكن سعيدًا على الإطلاق وأنا أقوم بأعمال الخدم - حياة العبد هذه - حتى أستطيع أن أهرب إلى حياتى السابقة . ومع ذلك لم أكن عبدًا فى قلبى .

عندما حان الوقت لوجبة المساء ، وضعت الأطباق على المائدة وبدا تيم وجوزيف منهكين عندما عادا إلى الغرفة مع الرجل ، وكانا يحملان مزيدًا من الحطب ووضعاه بجوار المدفأة .

وعندما جلس الجميع على المائدة ، أحنى الرجل رأسه وتحدث لوقت طويل ، وأنهى حديثه قائلاً : «آمين» . وتذكرت تلك الكلمات من وجبة الصباح .

مرة ثانية تساءلت وأنا آكل أين باقى هذه العشيرة ، فبالتأكيد هذا الرجل لديه أبناء آخرون خلاف هذه الابنة الشاحبة . أين زوجاته الأخريات والأطفال؟ لماذا لا يأتون إلى بيته ليحضروا الطعام ويأكلون مع والدهم؟ بالتأكيد لديه زوجات أخريات ؛ لأنه لا يبدو فقيرًا . ولو كان فقيرًا فمن أين له أن يشترينا؟ وأين الحكماء فى هذه العشيرة؟

ونظرت على الجانب الآخر من المائدة . كان الرجل والمرأة يأكلان دون أن يتحدثا ، وقاومت الدموع عندما فكرت فى أمى والطريقة التى اعتدنا أن نأكل بها معًا فى الأمسيات الدافئة ، بفعل شمس النهار فى غرفة جلوسها المفتوحة على ساحة الدار . وبعد الوجبات كانت العشيرة كلها تتجمع حول بيت أبى ، بينما كان أحد الحكماء يحكى قصة أو أعزف على الناى وآفوا تغنى .

كانت الغرفة باردة ، وأخذت رشفة من الشاى الساخن . هل كانت عادة هؤلاء الناس ألا يتحدثوا أو يضحكوا أو يغنوا؟

وبعد أن أكلنا ، أوضحت البنت أننى يجب أن أحمل الأوانى من على المائدة . وملأت طستًا بالماء ، وأوضحت لى كيف أنظف الأطباق والملاعق . و أخذت زوجة الرجل تخيط مربعات فى غطاء ذى مربعات عديدة مختلفة ، بينما كانت تنظر إلى الفتاة وإلىّ ونحن ننظف . مد إلينا تيم وجوزيف يد المساعدة ، وبدا كل منهما كأنه سيسقط من شدة الإرهاق . ربما أن عشيرة الرجل ستأتى فيما بعد ستعزف الموسيقى . وشعرت بالناى يحك جانبى وكنت أتحرق شوقًا لعزف الموسيقى .

عندما أصبحت الغرفة نظيفة ؛ وضعت المرأة ما كانت تخيطه جانبًا وسارت إلى المدفأة ونزلت على ركبتيها وشبكت يديها وفى البداية ظننت أنها مريضة ، ولكن زوجها لم يساعدها وبعد ذلك نزلت الفتاة على ركبتها بنفس الطريقة ، وأيضًا شبكت يديها وفعل جوزيف وتيم نفس الشىء . وكنت أنا الوحيد والرجل اللذين نقف دون أن نفعل مثلهم .

وأشار جوزيف إلى لأنضم إليهم . ماذا سيفعلون؟ هل هذا سيكون عقابًا؟

قال جوزيف وهو يبتسم لى «تعال ، تعال» .

ومشيت إليهم وركعت ، وقف الرجل وذراعاه ممتدتان فوق رءوسنا . ورفع وجهه المجعد لأعلى فى الهواء . مع من كان يتكلم؟

هل كان يتحدث إلى أرواح أجداده؟ لماذا كان الجميع على ركبهم وأيديهم متشابكة أمام وجوههم؟ وبقينا فى هذا الوضع لفترة كبيرة . وبدأت ساقىّ وقدمىّ تؤلمانى ، بينما زحف الخدر أعلى جانبى ، وفجأة سمعت جسمًا يسقط . فقد غلب النعاس تيموثى فسقط منبطحًا على وجهه .

غطت الفتاة فمها ، وهى تحاول ألا تضحك بصوت عال . وأصابت جوزيف نوبة سعال . وتمتم الرجل «آمين» ثم ثار غضبًا وضرب تيموثى على رأسه وظهره .

وبينما وقف الجميع ، نظرت من النافذة ولاحظت أن حبات برد بيضاء صغيرة تسقط من السماء . كان كل شىء مغطى باللون الأبيض .

قلت لجوزيف باللغة الأشانتية أذلك هو السبب أن هؤلاء الناس شاحبون هكذا . إذا لمسنا ذلك الشىء الأبيض ، هل سنصبح شاحبين مثلهم أيضًا؟

نهض جوزيف من ركوعه على ركبتيه ليرى ما الشىء الذى أثارنى هكذا . «حسنًا . . حسنًا» وأخذ يطمئننى «هذا ثلج» .

وصرخت خائفًا ، بدون أن أفهم ما قاله جوزيف ، وبدوره صاح الرجل فىّ مما جعلنى مضطربا أكثر .

صحت باللغة الأشانتية أريد أن أرحل . أريد أن أعود لوطنى .

صار وجه الرجل أحمر كالتوت من الغضب وصفعنى صفعة خلف أذنى .

مشيت باضطراب إلى الغرفة التى ننام فيها ، وتبعنى جوزيف وتيموثى .

وبينما جذبت البطانية الرمادية الشائكة فوق وجهى أقسمت أنه مهما مضى من وقت ؛ فإننى سوف أغادر ذلك المنزل وأعود إلى وطنى .

الفصل الثالث عشر

بيت جديد

كان صياح الديك هو أول صوت سمعته فى الصباح التالى . وللحظة ظننت أننى فى قريتى ، ولكن عندما رن جرس التنبيه خمس مرات تذكرت أين أنا .

استيقظ جوزيف وتيم أيضًا ، وتحدثا بصوت منخفض وهما يرتديان ملابسهما .

ارتديت ملابسى بسرعة ، لأن الغرفة كانت شديدة البرودة . وتركنا الغرفة الصغيرة ودخلنا الممر الضيق الذى يقود للخارج . وعندما وصلنا إلى الباب ، ترددت متذكرًا ذلك الشىء الأبيض من الليلة السابقة .

«حسنًا» حاول جوزيف أن يطمئننى . ولكن عندما فتح تيم الباب إلى ضوء الفجر الخافت رأيت الأرض والأشجار مغطاة بالثلج . هززت رأسى ورفضت أن أخرج فكرر جوزيف «حسنًا . . حسنًا هذا ثلج» .

هززت رأسى . خرج تيم وذهب إلى المرحاض الخارجى ، وحاول جوزيف أن يشدنى ولكنى ابتعدت عنه . وهز جوزيف كتفه وخرج هو أيضًا . وقفت أرتجف أمام الباب المفتوح وانتظرت وأنا أحدق فى الظلام الأبيض متوقعًا أن يصبح جوزيف أبيض مثل تيم عندما يرجع .

ورأيتهما يتسابقان على الأرض ، وهما عائدين إلى البيت . وجرف تيم بعضًا من الثلج الأبيض ، وجعل منها كرة قذفها على رأس جوزيف والتقط جوزيف أيضًا حفنة وألقاها على ظهر تيم . وأخذ الاثنان يتسابقان إلى الممر ، وهما يضحكان ويحكان أيديهما . لم يتحول جوزيف إلى اللون الأبيض ، لذلك قلت دعنى أجرب وخرجت بحرص على الأرض وغصت تقريبًا حتى ركبتى . وذهلت من طراوة وبرودة هذا الشىء ، عندما أخذت أنزل بقدمى وأتزحلق إلى المرحاض الخارجى .

كان تيم وجوزيف يطويان الفراش ، عندما عدت إلى الغرفة . وفجأة أردت أن أعزف أغنية حتى أجعل الشمس تشرق والبرد ينصرف .

كان الناى فى مكانه من جنبى فأخرجته من جيبى ووضعته على فمى .

ومد تيم وجوزيف أيديهما ليأخذا الناى ، هز تيم رأسه وجر أصبعه فوق حنجرته . وأشار جوزيف لى بأن أعيد الفلوت ثانية فى جيبى وقال : «ليس حسنًا» .

ياله من مكان كريه؟ لا عجب فكما أنه لا توجد شمس هنا . . لاتوجد موسيقى .

وبينما كنت أتبع الولدين عبر المنزل ، قال لى جوزيف أسماء الرجل والمرأة والفتاة «السيد براون والسيدة براون ومارجريت» كرر الأسماء عدة مرات ، بينما كان تيم يقلد الأسلوب المميز لكل منهم .

دخلنا الغرفة الكبيرة ، وفرحت عندما رأيت أن السيد براون لم يكن موجودًا . كانت مارجريت تعد النار وعندما دخلنا تحدثت إلىّ وهى تشير إلى الأطباق فى الخزانة . كنت أعرف أنها تريد أن أضعها على المائدة مثلما فعلت اليوم السابق ، ولكننى تظاهرت بأنى لم أفهمها . كيف يكون لها أن تعطينى أوامر؟ فهى لم تكن الزوجة ولا الأم ، وإنما فتاة ليست أكبر منى بكثير .

تحدثت إلى تيم وجوزيف اللذين حاولا أن يجعلانى أفهم ما كنت أفهمه أصلا . طويت ذراعى وأبديت الاهتمام الشديد ، بينما أخذ تيم بحرص طبقًا من الخزانة ووضعه على المائدة .

وقال : «طبق» . حملقت فيه بدون أى تعبير ، وكأنى ليست لدى أية فكرة عما أفعل . وظلت الفتاة تثرثر وهى تضع جذعًا خشبيًا فى المدفأة وظلت تراقبه حتى تحول إلى ألسنة من اللهب ، دخلت السيدة براون الغرفة ، وابتسمت لنا جميعًا ، وبعد ذلك نظرت إلىّ وأشارت إلى الخزانة . مشيت إلى الخزانة ووضعت الأطباق مثلما فعلت اليوم السابق . تعجب الجميع لأننى أطعت أوامرها هى بالذات .

عندما أتعلم كيف أتحدث لغتهم ، سوف أخبرهم أننى «كوفى» لا أتلقى أوامر من أطفال مثلى .

وكشرت مارجريت بوجهها لى ، عندما أدارت السيدة براون ظهرها لتصب ماء فى المرجل ، وبعد ذلك فى الطست الذى كان على حامل بجوار المدفأة . «كوفى» نادت اسمى وأشارت إلى الماء .

كان لطيفًا أن أسمع صوت امرأة رقيقًا ينادى اسمى . ودفعت الأفكار عن أمى وأختى وجدتى من رأسى ، وإلا كنت سأبدأ فى البكاء . وبينما كنت أغسل يدى ، دخل السيد براون وقد أحضر معه البرد والظلال . وجلس قريبًا جوزيف وتيم فى طرف المائدة وتحدث إليهم . وجلست أنا أيضًا .

طرق أحدهم الباب وفتحت الفتاة ، مما أدخل موجة من الهواء البارد . ودخل نفس الرجال الخمسة وعليهم غطاء من الرأس بوشاحات وملابس خارجية ثقيلة ، وأغطية رأس كانت تخفى تقريبًا وجوههم الحمراء ، وعلقوا ملابسهم فى الخطاف وأومأوا برءوسهم للسيد والسيدة ، وجلسوا على مقربة من المكان الذى نجلس فيه تيم وجوزيف وأنا .

أحضرت الفتاة الطعام للمائدة وجلست وكنت أعرف بالضبط ماذا سيحدث . انحنت الرءوس جميعًا فيما عدا رأسى وتحدث الرجل . وانتظرت بنفاذ صبر الكلمة السحرية «آمين» حتى يتوقف عن الكلام ونستطيع تناول الطعام .

عندما انتهت الوجبة غادر الرجال ، والسيد براون ، وتبعه جوزيف وتيم . وارتدت الفتاة غطاء رأسها وثوبها الخارجى الثقيل وخرجت وهى تمسك بالسلة . ومرة ثانية تساءلت . لماذا لا يحمل الناس فى هذا المكان الغريب السلال فوق رءوسهم مثلما سيفعل أى شخص لديه عقل؟! .

وبقيت السيدة براون وأنا . ومشت إلى المدفأة وحركت الجمرات وأضافت قطعًا صغيرة من الحطب لإزكاء النار . ولكن الغرفة كانت

لا تزال باردة ومظلمة . أخذت الأطباق ووضعتها فى حوض الغسيل حتى أغسلها .

«كوفى» نادتنى وأشارت إلى نفس الأشياء التى أخبرتنى بأسمائها بالأمس .

تذكرت كل أسمائها «نافذة ، أطباق ، كوب ، خزانة ، حجرة المؤن» . وبعد ذلك أشارت إلى النافذة وقالت «ثلج» .

وبينما أوضحت لى كيف أمخض الزبد ، وأدق التوابل ، علمتنى مزيدًا من الكلمات . وجعلتنى أرى الغرف الأخرى الباردة الكئيبة فى البيت ، ووصفت لى كيف أرتب الفراش ، وأزيل الغبار عن الموائد .

وأخذت أعمل طوال اليوم مع السيدة والفتاة . وعندما نظرت من النافذة رأيت الضوء بالخارج خافتًا ؛ صرت مقتنعًا بأن هذه الأرض من الشر بحيث لا تطلع عليها الشمس . وكنت مقتنعًا أيضًا أن المرأة ليست زوجة السيد براون وإنما خادمته ، لأن الزوجة لا تعمل عملا شاقًا وطويلاً هكذا . كان يجب أن تكون هناك زوجات أخريات ليتقاسمن الواجبات ، خاصة بالنسبة لرجل ثرىّ مثلما يبدو السيد براون .

وعندما حل الظلام تماما ، عاد السيد براون مع تيم وبدأ الضوء الذى بالداخل يخبو ، وهو يسير بجسمه الضخم عبر الغرفة ، ونظر إلىّ ثم تحدث للمرأة . وأخذ تيم وجوزيف يجران نفسيهما إلى المائدة .

وضعت الملاعق والأطباق على المائدة ، وجلسنا ، وكالمعتاد أحنى الرجل رأسه ، وانتظرت كلمة «آمين» ، وبعد الوجبة ساعدت الفتاة فى التنظيف وعاد جوزيف وتيم للخارج ، وبينما كنت أكنس بالقرب من المدفأة تساءلت ما إذا كان سيأتى وقت ليحكى أحد حكايات أو يغنى أغنيات . ولكن عندما عاد السيد براون وجوزيف وتيم وأيديهم تمتلئ بالحطب ، كان علينا جميعًا أن ننزل على ركبنا بينما كان الرجل يتحدث لأجداده . وظللت أنظر خلسة على تيم ، راجيًا ألا يغلبه النوم فيسقط ، ويستشيط الرجل غضبًا . ولكن عينىّ أيضًا كانتا مثل حجرين . ركع جوزيف من ناحية وأنا من الناحية الآخرى من تيم . وفى كل مرة يبدأ تيم أن يغفل كنا نقرصه فى جنبه ، وكان يستيقظ فزعًا .

وفى النهاية ردد السيد براون آمين السحرية ، ونهضنا . وسقط ثلاثتنا منهكين فى فراشنا .

وذاب يوم كئيب فى اليوم الذى عليه ، ولكن بعد سبعة أيام ، تغير النظام اليومى .

الفصل الرابع عشر

البيت الطويل

كان تيم وجوزيف أكثر سعادة عندما استيقظنا ذلك اليوم . أستطيع أن أخمن أننا تأخرنا في النوم عن المعتاد لأن الشمس كانت أعلى في السماء . وذهبت مباشرة إلى الغرفة الكبيرة وبدأت مهامي اليومية . وضعت الأطباق والملاعق على المائدة ، ولكن الفتاة الغريبة لم تحضر العصيدة المعتادة . وسكبت لبنًا في الأكواب ، ووضعت الخبز المخبوز في الليلة السابقة على المائدة .

عندما انتهينا من الطعام ، انتظرت أن يغادر تيم وجوزيف مع السيد براون كالعادة . ولكن لم يفعلوا . نهضت من على المائدة وبدأت أجمع الأطباق وفتات الخبز ، ولكن السيدة أوقفتني قائلة كلمة جديدة : «يوم السبت» .

فعلت مثلما يفعلون بدون أن أفهم ، فارتديت ملابس الخروج وتركت المنزل معهم . إلى أين سنذهب؟! ربما سنذهب ليبيعونا ثانية . ربما سيعيدوننا للقبطان الذى باعنا وربما سيرسلني إلى الساحل الذى وجدني فيه .

كان السيد براون ينتظرنا في الخارج ومشينا جميعًا في طريق مختلف يأخذنا بعيدًا عن المنزل . استطعت أن أرى بوضوح المباني الخشبية الأخرى في مجمع البيوت الغريب هذا . . قلت في نفسي

ونحن نسير على الجليد البارد الزلق : ربما كانت زوجات الرجل الأخريات وأولاده يعيشون فى تلك المبانى . كان العالم مختلفًا تمامًا عن غاباتنا الخضراء وبيوتنا ذات الجدران الحمراء . مشيت بين جوزيف وتيم بينما سار الزوجان وظهرهما منتصبين ومشدودين أمامنا ، أما الفتاة فكانت تمشى بجوارى .

ومن حين لآخر كنت أرى منزلاً مثل الذى أسكنه الآن ، بمفرده على جانب تل خالٍ . تساءلت فى نفسى أين السفن والبحر الذى أتى بى إلى هذه الأرض؟ لم أر مكانًا أستطيع الهروب إليه ولا طريقًا أعود منه إلى وطنى . . خاصة وأنا لا أستطيع التحدث مع أحد . وجذبت كم جوزيف : «جوزيف؟» .

أومأ برأسه : «نعم ، حسنًا ياكوفى» .

شعرت بتحسن قليل . كان تيم سعيدًا وهو يتحدث بصوت منخفض للفتاة ولم يكن جوزيف خائفًا ، إذن ربما لا ينبغى أن أخاف أنا أيضًا .

ووصلنا إلى غابة وتعجبت عندما رأيت أشجارًا خضراء ذات أوراق رفيعة المستوى . وكانت بعض الأشجار ضخمة جدًا والبعض طويلة جدًا . وانبعثت من الغابة رائحة جميلة ، وكانت كثيفة جدًا حتى أنى كنت بالكاد أرى السماء . وعندما وصلنا إلى أرض مقطوعة الأشجار ، ذهلتُ عندما رأيت أننا فى مكان يشبه المنطقة التى كنا فيها ، عندما تركتنا السفينة فى البداية ، ولكن لم يكن هناك سفن أو بحر . كان هناك بنايات خشبية صغيرة متراصة ولا

أحد يدخل أو يخرج منها . ولكن كان هناك بيت طويل فى وسط المبانى ، والعديد من الناس يسيرون نحوه ويدخلونه . لم يكن هناك أحد يمتطى حصانًا ويركب العربات الصغيرة التى تجرها الخيل .

كان الجميع يرتدون نفس الملابس البسيطة السمراء الثقيلة ، ودخلنا المبنى الخشبى الطويل ، وتساءلت ما إذا كان للحيوانات مكان بالداخل . وتعجبت عندما رأيت أنه لا توجد هناك موائد للطعام أو مدفأة ، وإنما فقط صفوف من المقاعد الطويلة على جانبى الغرفة يجلس عليها الناس لابد أن هذه هى قبيلة السيد براون .

وأشارت السيدة للمقاعد الخلفية ، وأومأت لنا لنجلس عليها . جلست مارجريت معنا ، بينما السيد والسيدة براون سارا إلى الأمام وجلسا .

ومع مجىء المزيد من الناس تباعًا ، ظننت أن كل الأطفال سيجلسون فى الخلف ، مثلما نفعل فى احتفالاتنا ، حيث الأطفال والنساء يبقون فى أطراف الساحة ، ولكن بعض الأطفال والكثير من النساء جلسوا فى المقدمة .

وجاءت ببطء امرأة تعرج ، وتمسك بعصا جلست على نفس المقعد معنا بجوار جوزيف ، وبالرغم من أننى علمت أنه ليس من الادب أن تحملق فى أحد ، لم أستطع أن أمنع نفسى ، لأن بشرتها السوداء الناعمة والقليل من التجاعيد والعينين البنيتين اللامعتين ذكرتنى كثيرًا بجدتى . وشعرت بالارتباك عندما لمحتنى وأنا أنظر إليها ولكنها أومأت برأسها قليلا ، وأدارت انتباهها للجزء الأمامى

من الغرفة . كم كنت أريد أن أتحدث معها . أين كانت تعيش؟ من أين جاءت؟ هل هى أسيرة مثلى؟ هل تستطيع أن تتحدث اللغة الأشـــانتية . . أو على الأقل الفانتية؟

وفجأة صعد رجل طويل على منصة . كان شعره كثيفًا أبيض يطير فى كل الاتجاهات وكان حاجباه الأبيضان يمتدان مثل ذيل كث فوق جبهته ، وعندما مد ذراعيه الطويلين وقف الجميع . ظللت أنا جالسًا ، ولكن تيم أمسك فجأة بذراعى وجذبنى لأقف .

غرزت مرفقى فى بطن تيم ، لأنه أمسكنى وكأنى قطعة قماش ، ولكنى أحسست أن هذا مكان غير عادى ، وأن الرجل العجوز الذى يقف أمامنا زعيم ولابد من إظهار الاحترام له ، لذلك بقيت واقفًا ظننت أنه سيحكى تاريخ هذه القبيلة . ومد ذراعيه وكأنه سيلمس كل واحد منا ، وعرفت أنه عندما يلقى رأسه للخلف مثلما كان السيد براون يفعل ، سيكون هناك كثير من الكلام .

وخفضت رأسى مثل الجميع ، ولكن عينىّ كانت مفتوحة على مداها وأنا أحدق حول الغرفة . كان هناك كرسيان على المنصة ، وقد ذكرنى المشهد باحتفالنا السنوى حيث يجلس ملكنا وملكتنا أمامنا والكرسى الذهبى محمول فوق رأسيهما .

عندما قال الرجل «آمين» اعتقدت أننا سوف نأكل . ولكن بدلا من ذلك أنزل ذراعيه وجلس الجميع ثانية ، ثم استمر فى حديثه . نظرت إلى تيم الذى غطى فمه ليمنع تثاؤبه . كان رأس جوزيف منحنيًا وتعجبت لماذا لم يجلس منتصبا مثل الجميع . وفجأة انبعث

صوت غطيط عال ، لم يتمكن جوزيف من التحكم فيه فضربه تيم على كتفه . وضحكت فتاة ومسح الرجل الغرفة بعينيه بما فيها نحن .

وبينما كنت أستمع لرتابة صوته ، فكرت فى أيامى الأخيرة قبل أن يأسرونى ، وصليت لأجدادى ودعوت الله أن يعيدنى لوطنى .

وبعد الجلوس وسماع صوت الرجل لفترة طويلة ، وقف الجميع ليغادر . اتكأت على جوزيف وتحدثت إلى «العجوز الرائعة التى رأيتها فى الصباح .

قلت لها باللغة الأشانتية : «أمى أنا أشانتى ، ابن الأمانهين كوامى ، وقد أسرونى هنا» .

انفتح فمها الرقيق قليلاً ، وحملقت فىّ . ظننت أننى ضايقتها بطريقة ما . ولكن عندئذ بدت عيناها وكأنها تذوب كالشمع وعانقتنى وبدأت تتحدث باللغة الأشانتية . وقالت : «أم ، قرية ، سوق ، قماش» .

قلت بانفعال : «آه ، يا أمى أنا سعيد جدًا أنى وجدتك هل يمكنك أن تساعدينى؟ أريد أن أعود إلى قريتى .أخيرًا وجدت شخصًا يفهمنى» .

بعد ذلك كررت نفس الكلمات الأشانتية . «أم ، قرية ، سوق ، قماش» وابتسمت وقالت شيئا آخر لى ، ولكن بلغة الرجل الأبيض .

تحدث جوزيف لها ، فهزت ، رأسها بحزن ولمست وجهى بيديها الرقيقتين كالحرير . وأدركت عندئذ أنها قالت لى الكلمات الأشانتية الوحيدة التى تعرفها . كنت أريد أن أتبعها عندما سارت

بعـيـدًا عنا وهى تعـرج . أين تعلمت تلك الكلمـات؟ هل كـانت أشانتية هى الأخرى؟

وعندمـا خـرجنا إلى الهـواء القـارس ، أخـذت أنظر إلى السـيـدة القصيرة الوحيدة وهى تسير عبر الطريق الضيق الذى يقود إلى تل صغير . وبينمـا كنا نسير إلى البيت ، ثبتُ فى عقلى الطريق الذى اتخذناه وقررت أن أعود ثانية لذلك المكان وأبحث عنها .

عندما وصلنا إلى البيت ، ذهبنا جميعًا إلى غرفة الطعام . كانت الأطبـاق المتـسـخـة لا تزال مكدسـة بجـوار الدلو وبالرغم من أننى كنت سـعـيـدًا لأننى ليس علىّ أن أنظفـهـا ، تساءلت لماذا يجب أن تترك الأطباق متسخة .

وجمعتنا السيدة أنا وجوزيف وتيم ومارجريت حول المائدة بينما ذهب السـيـد براون إلى غـرفـة أخـرى . تحـدثـت إلينا لفـتـرة طويلة وحاولت أن أفهم أكبر عدد من الكلمات بقدر ما استطعت . وبعد ذلك التفتت إلىّ ورفعت شيئا وأشارت إليه . قالت لى : «الكتاب المقدس» فتحته وتحدثت ثانية .

وبعـد ذلك ناولتـه لجـوزيف ، الذى حـملق فـيـه هو أيضًا وتحـدث طويلا . وفـعلت مـارجريت نفس الشىء . نظر تيم أيضًا فـيـه ولكنه كان يتلعثم ويتردد فى كلامه .

عندما دخل السيد براون إلى الغرفة كان علينا جميعًا أن نركع بينمـا ظل يتـحـدث ويتـحـدث ؛ شـعـرت كـأن عـامًا قـد مـر قـبـل أن ينتـهى . وعندمـا قـال آمين فى النهـاية رن جـرس التـنبـيـه خـمس مرات ، وأكلنا خبزًا وشربنا شايا .

تعجبت مما يعنيه هذا النظام الجديد . وتمنيت أن نذهب ثانية للبيت الطويل اليوم التالى حتى أستطيع أن أرى المرأة العجوز . ولكن فى الصباح التالى عدنا إلى أعمالنا المعتادة ، فأخذت أعمل طوال اليوم فى البيت مع السيدة براون ومارجريت . علمتنى السيدة مزيدًا من الكلمات ، وكنت أجمعها مثلما كان الملوك الأشانتيون يجمعون الذهب .

ومر شروق الشمس سبع مرات قبل أن نعود ثانية إلى البيت الكبير . ورأيت المرأة العجوز وتحدثت إليها باللغة الجديدة . قلت «صباح الخير» . وعانقتنى وردت صباح الخير يابنى وعندئذ دمعت عيناها وكررت باللغة الأشانتية «أم ، قرية ، سوق ، قماش» .

وأدركت أن الذهاب إلى هذا المكان شىء يحدث بانتظام ، وكان اليوم الوحيد الذى ليس فيه عمل . . ولا حتى الطهو . وكنت أتطلع للعودة ، لأنى سأرى المرأة العجوز . ولكن بعد بضعة أيام من زيارتنا لذلك البيت جاء السيد براون وتيم إلى غرفة الطعام وأنا أجهز المائدة للغداء . ولم يكن جوزيف معه .

صحت فى حدة : «جوزيف» متسائلاً ماذا فعل به السيد براون؟

حاول تيم تهدئتى وقال : «جوزيف . . فى أحسن حال» .

صحت باللغة الأشانتية «أين جوزيف»؟

حملق السيد براون فىّ غاضبًا ، ودفعنى إلى الكرسى . فسكت لأنى لم أكن أريد أن يضربنى . لم يكن هناك شىء أستطيع أن أقوله أو أفعله لأساعد نفسى أو أساعد جوزيف ، لأننا فى نظر

الجميع عبيد . . ملك خاص للسيد براون . وحملقت فى طبقى ولسبب لم أفهمه بدأت أفكر فى أوپونج . وأحسست أنى بدأت أفهمه الآن ، فبالرغم من أن والدى كان يعامله كابنه وليس بالطريقة التى يعاملنى بها السيد براون ، إلا أن أوپونج ربما كان يكره كونه عبدًا . لا شك أنه كان مخطئًا فى خيانته لكوامى ، ولكن الإنسان لا يستطيع أبدًا أن يمتلك إنسانًا آخر .

والآن قد ذهب جوزيف ، لأنه مجرد قطعة من الممتلكات الخاصة وربما يكون السيد براون قد باعه .

الفصل الخامس عشر

الدروس السرية

سالم - ماساتشوسيتس

أبريل «نيسان» 1789

كنت أتضايق فى كل مرة كان تيم يقطع فيها جذع شجرة بالفأس ، وحذرته «لابد أن تردد صلاة لروح الشجرة قبل أن تقطعها» .

«أنت تعرف يا صديقى أنى لا أؤمن بأى من ذلك الهراء . فأنت ساذج مثل السيد براون بشياطينه وأرواحه» .

«ليس ساذجًا . فذات يوم سوف تنكسر ذراعك . نحن نصلى للروح . . وبعد ذلك نقطع الشجرة» .

قال تيم وهو يرفع الفأس : «كنت أحبك أكثر قبل أن تتعلم الإنجليزية . لم تكن تستطيع أن تعطى نصائح آنذاك» .

نزل تيم بالفأس على جذع الشجرة ، وابتسمت لنفسى وأنا أجمع الحجارة التى تستخدمها السيدة فى حديقتها .

بالإضافة إلى تعلم الإنجليزية ، عرفت أشياء عديدة فى الفترة التى قضيتها فى بيت إليزابيث وجوناثان براون ، عرفت أن جوزيف لم يُبع لمكان آخر ، ولكن السيد براون أجره ليعمل لدى الخباز . وكان جوزيف يغادر البيت مبكرًا فى الصباح ، ويعود فى المساء عندما يدق الجرس عشر مرات .

وعرفت أن الرجال الذين يتناولون الإفطار معنا كل صباح ليسوا أبناء السيد ، ولكن عمال المزرعة الذين يعملون عنده .

وأكثر شيء مدهش عرفته هو أن السيد براون لديه زوجة واحدة السيدة براون ، وليس له أبناء . أما مارجريت ، فكانت خادمة وقد انتهت فترة عبوديتها ، وعندما تعلمت كيف تفعل كل الأشغال التى تقوم بها ، صارت لها الحرية فى أن تترك عائلة براون ، وتبدأ حياة جديدة .

غطيت عينىَّ ونظرت إلى مكان الشمس . وبدا أن الوقت يقترب من الظهيرة . هزنى صوت ارتطام . فقد سقطت شجرة القيقب الصغيرة التى كان يقطعها تيم ، ووقف أمامها يمسح العرق عن جبينه .

نادتنا السيدة من سلالم المنزل «تيم . . . كوفى» .

هز تيم رأسه «لا ، لا ، حان وقت الدرس اللعين» .

تركت الكيس نصف ممتلئ بالحجارة ، ومشيت سريعا نحو البيت . وتباطأ تيم خلفى . وعندما اقتربت من واحدة من العديد من الأشجار الميتة ذات الأغصان السميكة العارية ، لاحظت شيئًا مختلفًا فيها . كانت روائح الأرض الحية تحيط بها قليلا - وبدا أنها تعود للحياة ثانية ، فقد ظهرت براعم مستديرة صغيرة جدًا على أغصانها ، وجلس عصفور صغير بنى له صدر أحمر على أحد أغصانها . ولم أكن رأيت من قبل عصفورًا جميلاً هنا . ربما لأن أغنية العصفور المجيد قد جعلت شيئًا سحريًا يحدث للشجرة الميتة .

ولحق بى تيم وسألنى «ما الذى تنظر إليه؟» .

لمست أحد البراعم فطار العصفور بعيدًا «الشجرة الميتة تولد من جديد!!» .

قال تيم : «سرعان ما ستزدهر الأشجار اللعينة . إنه فصل الربيع» كان تيم يربكنى أحيانا - لم يكن عندى فكرة عم يتحدث .

وقفت السيدة براون عند الباب الأمامى ، وقالت ونحن نسير وراءها إلى غرفة الطعام «هيا يا أولاد» . كنت أتعلم اللغة ، ومعنى الرموز والعلامات التى تسميها حروفًا . جلسنا على المائدة حيث نأكل دائمًا . وأعطت السيدة كلاً منا لوحًا اردوازيًا وطباشيرًا وكتبت الحروف الأبجدية .

شبكت السيدة يديها وكأنها تصلى ، وهى تنظر فوق كتفى .

«رائع يا كوفى . . أنا مندهشة من سرعة تعلمك» .

كنت أحب تكوين الحروف ، فقد كان يذكرنى بالعلامات التى ينقشها الكهنة على معبد الإله نيامى فى قريتنا . وبينما كنت أكتب كانت السيدة تساعد تيم الذى كان يحفظ الحروف ولكن كان لديه مشكلة فى تكوين كلمات منها .

وتغير وجه السيدة من الأبيض إلى الأحمر الزاهى ، عندما انتهيت من شرح الكلمات والحروف لتيم . أخذ تيم يحك رأسه ويتململ واحمر وجهه مثل السيدة .

عندما يدق جرس الساعة مرة واحدة ، فإن هذا معناه عادة نهاية الدرس . وقفز تيم تقريبا من المائدة ، ولكن السيدة وضعت يدها

الطويلة النحيلة على كتفه : «انتظر ، أنت لم تقرأ بعد هذه الكلمات لى» .

«ولكن يا سيدتى ، السيد يريدنى أن أنقل خشبًا للمزارع ادواردز» .

«يمكن إرجاء ذلك قليلاً . لا أريد أن يكون لك رأس خشبية صلبة ، تدرب على تلك الكلمات حتى تستطيع قراءتها» .

وجاءت إلىّ : «الآن يا كوفى عندما تردد الكلمات لا تنطقها بالطريقة التى ينطق بها تيم . فهو لا ينطق اللغة الإنجليزية بالطريقة الصحيحة ، كما تعرف» .

رفع تيم رأسه من كتابه قائلا : «لكن يا سيدتى ، الجميع يفهموننى» .

وفجأة انفتح الباب ، ودخل جوناثان براون وحملق بغضب فى تيم «كان المفروض أن تنقل الخشب . إنك لم تنته من مجرد تجزيئه»

قالت السيدة : «كنت فقط أريد أن أكمل درس اليوم» .

هذه ليست مدرسة ، وأنت لم تعودى مدرسة . وأخذ كوبا من فوق الرف . «أنت تدمرينهما . قلت لك إن الله قد خلق كلاً منا لغرض ، فالإفريقى خلق ليكون خادما ، وهو أغبى من أن يتعلم كثيرًا . والناس أمثال تيم لا يتعلمون أبدًا أكثر من التعرف على أسمائهم وهجائها» .

وتعجبت من يكون الإفريقى .

جمعت السيدة كتبها وألواح الإردواز وقالت وهى تريه اللوح الذى أكتب عليه «الصبى الأسود يدهشنى . فلديه استعداد كبير للتعلم بسرعة شديدة» .

لم ينظر إليه وقال : لا دروس بعد الآن . فهذه أكثر فترات العام انشغالا .

وفى صمت وضعت السيدة الكتب وألواح الكتابة فى درج الخزانة . وشعرت بالأسف من أجلها لأنى كنت أرى أنها تستمتع بالتدريس لنا . وعاد تيم إلى الباب وعلى وجهه تعبيرات ساخرة من وراء ظهر براون المتصلب .

بدأت أتبع تيم ، ولكن براون نادانى وأمرنى : «اصنع لى كوبا من الشاى» .

جلس على المائدة مثل الظل الكبير . لقد أوقف الدروس ولكن لن يستطيع أن يوقف تقدمى فى تعلم اللغة ، ولن يستطيع أن يمنعنى من أن أفكر فى طريقةأعود بها إلى وطنى .

فى الصباح التالى ، وبعد أن انتهيت من أعمالى اليومية بالداخل خرجت لأطعم الدجاج وأحلب البقر والماعز . وكان تيم والسيد قد خرجا من قبل .

فتحت الباب ولكن السيدة نادتنى .

«انتظر يا كوفى ، اجلس هنا بجوار الخزانة ذات الأدراج» جعلتنى أجلس على الأرضية ، بعيدًا عن النظر وبينما كان يبدو عليها القلق أخرجت بحرص لوحة الاردواز والطباشير من الخزانة .

وهمست : «إذا دخل السيد ، ضع كل شىء فى الدرج وصب الماء كأنك تعد الشاى من أجلى» .

كان الدرس قصيرًا لأنه كان لدى أعمال ينبغى القيام بها ، ولكنى كنت سعيد لأنها ستعلمنى الكلمات والحروف بالرغم مما حدث ، لأنى كنت أحب الدروس فى قلبى .

وعندما انتهينا جريت للخارج وتوجهت إلى حظيرة الدجاج ، وشعرت أننى تقريبًا استرددت نفسى القديمة السعيدة لأنى عرفت أن السيدة ترغب فى الاستمرار فى تعليمى ، فقد أصبحت صديقتى ويمكن أن تساعدنى للعودة لوطنى .

عندما مررت بالبئر ، لاحظت أن الشمس كانت ساطعة جدًا . وبدلاً من الذهاب إلى الدجاج اندفعت إلى خارج المنزل وأخرجت الناى من جيبى . لأول مرة منذ وقوعى في الأسر أجلس قبالة الشمس وأعزف لحنًا . . أغنية للشمس التى وجدتنى أخيرًا . وفى كل صباح عندما أستيقظ كنت أخرج من المنزل وأستقبل ذلك الشريط القرمزى فى السماء وأعزف أغنية للشمس ولآما التى لم أنسها أبدًا .

أصبح كل يوم أكثر دفئا ، وفجأة انبثقت الأوراق والأزهار من البراعم الممتلئة . يا لها من حكايات سوف أحكيها لافوا ، وباقى أسرتى عندما أعود .

وازدادت الكلمات الجديدة على لسانى مثلما ازدادت الأوراق الخضراء على الأشجار . أصبحت أتحدث لغة جديدة أصف بها مشاعرى .

ولم يكتشف السيد براون أمر دروسنا السرية . وفى يوم الراحة والعبادة كنا نذهب للكنيسة كالمعتاد ، ورأيت الجدة العجوز . كانت دائما تبتسم لى ابتسامة حلوة عندما ندخل الكنيسة وتقول لنا : مع السلامة ، عندما نغادر .

وفى يوم أحد ، ذات مرة لوحت لها أودعها ونظرت إليها وهى تسير أعلى الطريق ، واستدرت إلى جوزيف وتيم وسألت :

«أين تعيش؟» .

قال جوزيف : «لا أعلم . ربما فى مستوطنة السود» .

«وما هذه؟» .

وضع تيم ذراعه حول كتفى «اسمع يا صديقى ، إنها مثل قرية حيث يعيش الأفارقة الكبار الذين لم يعودوا عبيدًا» .

كان السيد والسيدة براون قد سارا بعيدين عنا . فسألت «هل كانت الجدة العجوز أَمَةً؟» .

قال جوزيف : «أعتقد هذا ولكن منذ وقت بعيد» .

وفى مستوطنة السود هذه تعيش حرة؟

قال تيم : «نعم» .

أريد أن أذهب إليها . هل نستطيع أن نذهب هناك؟

تلألأت عينا تيم «بالتأكيد يا صديقى . عندما يكون السيد الثرثار بعيدًا» .

أوقفنا جوزيف عن الكلام وقال «أفضل لكما أنتما الاثنان أن تكونا حريصين ، سوف تتلقيان صفعات كافية من براون إذا أمسك بكما وأنتما تتجولان ولا تعملان» .

فداعبه تيم : أنت فقدت شجاعتك يا جوزيف . فالصفع ينفع معك لأنه يجعل جلدك قويًا»

أصبحت الأيام التالية أكثر دفئًا وإشراقًا ، ولكن السيد كان دائمًا موجودًا لأن العمل كان أكثر من ذى قبل .

وأحيانا كنت أتسلل من الأشغال وأركب مع تيم للمزارع حيث يكون عليه أن يسلم خشبًا أو قشًا . وكان تيم يزور القرية التى تعيش فيها المرأة العجوز وقال لى : «اسمها جويل وهى تصنع أحلى فطائر السمك فى نيو إنجلند» .

وكـان السـيـد لايزال يرهقنا بصلواته الطويلة فى المسـاء ، واضطررت أنا وتيم أن نقـاوم النوم وهو يصلى - وإلا فـسـوف يضربنا . وكنا نحسد جوزيف الذى كان مع الخباز معظم اليوم كان كـلانا يحاول أن يظل يقظًا فى انتظار عودته فى المساء ولكننا فى معظم الأحيان يغلبنا النوم قبل وصوله .

كان تيم دائمًا يقول له : «أنت محظوظ لأنك مع الخباز . على الأقل لا يجعلك تعمل كالبغل» .

وكان يجيب «أتمنى لو أستطيع العمل لنفسى . فكل ما أكسبه يذهب لبراون» .

وكنت أظن أن أيام الشمس المشرقة والزهور ستبقى للأبد ، ولكن شيئًا فشيئًا تغير الحال . أصبح الهواء لاذعًا كالإبر ولكن الأشجار اكتست بأروع درجات الأحمر والأصفر والبرتقالى ، مثل الثوب الجميل الذى أعطاه والدى لى .

وشعرت أن شيئًا فظيعًا على وشك الحدوث . وكنت على حق . لأن سرعان ما بدأت الأوراق تسقط من الأشجار . وببطء تحولت الفروع إلى ما يشبه أذرع المتسولين ثانية . وفى كل يوم كنت أرى العالم الجميل يذبل . ومهما كنت أعزف طويلاً وباجتهاد فلم تكن الشمس تظهر فى شعاع من الضوء كما كانت . وبينما كنت أطعم الدجاج ذات صباح سقط الثلج ومات العالم من جديد .

الفصل السادس عشر

الخطط

سالم - ماساتشوسيتس

يناير كانون الثانى 1790

مرت شهور الربيع والصيف بسرعة حتى أننى لم أجد الفرصة لأزور الجدة العجوز . وتباطأت الأيام والليالى الباردة ومهما وضعنا حطبًا فى المدفأة فإن البرد القارس ظل باقيًا فى الهواء . بدا الوطن أبعد من ذى قبل ولكنى لم أفقد الأمل أبدًا .

وذات يوم فى صباح جليدى ، بينما كنت جالسًا خلف الباب أكتب على لوح الاردواز ، سألت السيدة «هل ستعود الأيام الدافئة والخضراء ثانية؟» .

أجابت «نعم فسوف تتفتح الأزهار والأشجار مرة ثانية . فالله يعطى ويأخذ . فى كل عام يحل شتاء ، ومن بعده يأتى الربيع ، نظرت إلى باهتمام : أنت تبدو حزينا هذه الأيام ، ظننت أنك تحب دروسنا وأنك بدأت تكون سعيدًا هنا معنا» .

كان على لسانى كلمات كثيرة وكنت أفهم من اللغة أكثر مما أستطيع أن أتحدث . لم أكن قد تحدثت مع السيدة عن تعاستى من قبل . لعلها ترغب فى مساعدتى . «أنا أحب الدروس جدًا يا سيدتى ولكنى أشعر بالحنين القوى إلى وطنى ولابد أن أعود إليه» .

«ولكن ذلك لم يعد ممكنًا يا كوفى» . كانت نظراتها رقيقة

ناعمة . «يا بنى أنت أصغر من أن تستطيع الفهم . لقد أنقذناك من الأحراش وأنقذنا روحك من الضياع . هذا هو وطنك الآن» .

«الأحراش يا سيدتى؟»

«نعم ، من حيث أتيت» .

«لا أعرف ما الأدغال ولكن أنا أشانتى وأُخذت أسيرًا . أنا لست عبدًا» .

لم يظهر على وجهها أنها تفهمنى .

«سيدتى ، أنا أسير هنا . كان والدى آمانهين العظيم كوامى ، وهو زعيم كبير . وقد خاننا عبدنا وقتل الوالد وأخى . وقد سرقت من وطنى ، وأسرتى لا تعرف أين أنا . أرجوك هل تستطيعين أن تقولى للسيد أن يرسلنى إلى وطنى؟» .

تنهدت «أنت لا تفهم . لابد أن ترضى بحياتك هنا . إنها إرادة الله . سوف أصلى من أجل روحك» . وسارت بعيدًا عنى ونظرت من النافذة قائلة لى : «الآن اقرأ الجملة التى تعلمتها أمس يا كوفى» .

«كتابى وقلبى لن يفترقا أبدًا» قرأتها من الكتاب التمهيدى . وبعد ذلك وضعت الكتاب واللوح فى الدرج .

«سيدتى لم أعد أريد أن أقرأ . سأقوم بالأعمال المطلوبة منى فقط» .

وأبقت ظهرها لى «أعرف أنك حزين ولكن لابد أن تخضع لإرادة الله» .

لم أكن أعرف ما الذى تتحدث عنه ولكنى فهمت أنها لن تساعدنى ، لم تكن صديقتى مثلما ظننت . لا يمكننى أبدًا أن أقبل بالعيش عبدًا فيما يتبقى من حياتى .

وأثناء قيامى بالأعمال المطلوبة منى ، لم أفكر فى شىء سوى إحساسى بخيبة الأمل . لقد كنت متيقنًا من أننى بمجرد أن أخبرها بحكايتى فسوف تعيدنى لوطنى . كان تيم دائما يتحدث عن الهرب خاصة عندما يكون غاضبًا من السيد براون . ربما نستطيع أنا وجوزيف وتيم أن نهرب معًا . على الأقل لن نكون عبيدًا للسيد براون . وأستطيع أن أجد البحر ثانية لأعود إلى وطنى .

تلك الليلة تركت الشمعة مضاءة وجلست على جانب فراشى وهمست : «تيم ، لابد أن أغادر هذا المكان لم أعد أستطيع أن أقبل بالعيش عبدًا» .

تدحرج على فراشه وقال : «ماذا؟ كنت أظن أنك تحب هذا المكان هنا من الطريقة التى تجلس بها أمام السيدة وتعلمك الدروس» .

«أنا أحب الدروس ولكنى لست عبدًا . لابد أن أعود إلى أسرتى» .

ومال نحوى . «أنا أفكر فى الهروب طوال الوقت . فسوف يجعلنى براون أعمل حتى الموت قبل أن أحصل على حريتى منه» .

وجلس قائلا : «سوف نذهب إلى نيويورك أو بوسطن كما تعرف ، فى هذه المدن الكبيرة هناك لن يستطيع أحد أن يجدنا» .

دقت الساعة العاشرة وبعد ذلك ببضع دقائق دخل جوزيف الغرفة . أخذ يدلك يديه فى بعضهما وهو يرتجف من البرد .

«ما الذى تفعلانه أنتما الاثنان؟» .

جذب تيم ذراع جوزيف «ما رأيك فى أن نهرب لبوسطن أو نيويورك؟» .

سخر منا جوزيف وهو يخلع ملابسه : «ذلك كلام سخيف . تيم ليس أمامك إلا بضع سنوات من العمل لدى براون وستحصل على حريتك وسوف تحصل أيضًا على نقود ويمكنك أن تبدأ حياة جديدة . هل ستضيع كل هذا لأنك لست صابرًا . إذا هربت فسوف تعرض نفسك للجلد بالسوط والسجن»

رد تيم بمرارة : «براون لن يدفع لى نقودى سيجد سببا حتى لا يدفع» .

سألت جوزيف : «وأنا؟ هل سأكون حرًا بعد عدة سنوات؟» .

«أنت وأنا عبيد يا كوفى . نحن ملك لبراون مدى الحياة» .

شعرت بقلبى يدق بشدة قلت مشيرًا إلى نفسى : «أنا لست عبدًا . أنا أشانتى» .

توقف تيم عن حك ذراعه الذى دائمًا يؤلمه من قطع الخشب . «الثرثار يعتقد أنك عبد إفريقى أسود» .

قال جوزيف : «كوفى يوما ما ربما نحصل على حريتنا . أحيانًا يشترى السود حريتهم . هناك رجل أسود يعمل عند الخباز . لقد

ادخر نقودًا واشترى حريته من سيده» . سحب جوزيف فراشه من الركن وقال «نم الآن قبل أن توقظ براون» .

ولكن تيم كان لديه الكثير من الكلام فقد قال لى . «كيف تستطيع أن تشترى حريتك من الثرثار؟ إنه لا يسمح لك أن تحتفظ بأى من النقود التى تكسبها» .

أشار جوزيف لنا لنقترب منه . «الخباز يعطينى بعض السنتات لأحتفظ بها لنفسى عندما يكون العمل كثيرًا أو عندما أقوم بعمل إضافى . وطلب منِّى ألا أخبر السيد عن هذه النقود الإضافية . أخبرنى أنها ملكى لأحتفظ بها» . ومد جوزيف يده تحت البطانية وأخرج كيسًا صغيرًا «انظرا ، إننى أدخرها كلها» .

قال تيم : «يارفيقى ، براون لن يبيعك لنفسك ثانية أبدًا . سوف يعطيك حريتك عندما تصبح عجوزًا بلا فائدة مثل الرجال السود المساكين فى مستوطنة السود . أنا أعرف أى نوع من البشر هو . فهو لا يهب أى شىء» .

أتدرون أيضًا؟ كان صوت جوزيف - بالكاد - مسموعًا لقد أخبر براون الخباز أننى وكوفى نعمل خدمًا عنده» .

تدخل تيم قائلاً : «معنى ذلك أنه ليس من المفترض أن يشترى أفارقة هنا فى ماسا تشوسيتس ، لذلك يقول للناس إنك وكوفى تعملان بعقد لمدة مثلى . إلا أنه لن يعطيكما حريتكما حتى بالرغم من أنه ليس من المفترض أن يمتلككما» .

التفت تيم إلىّ «أنت تعرف ياكوفى ، فى الحقيقة أنه لم يكن يريدنى أنا ولا جوزيف ، لقد اشتراك أنت ، وأخذ جوزيف هنا بدون

مقابل لأن التاجر كان يريد أن يتخلص منه فقد كان يبدو سقيما ويسعل بطريقة سيئة ، وقد طلب من التاجر أن يعطيه عقدًا لى بقيمة أقل مما دفعه التاجر للقبطان . وأقنعته السيدة أن يأخذ جوزيف لأنها اعتقدت أنكما شقيقان» .

وانسل تيم -المستعد دائمًا ليتصرف كالمهرج- من فراشه وأخذ يقلد السيدة براون مثلما تقف فوق رأسى قائلة : «زوجى . . هذان الطفلان أصبحا مرتبطين ببعضهما والغلام الأبيض ضخم وقوى . يمكنه أن يساعدك فى قطع الأشجار وتسليم الخشب» .

وبعد ذلك قلد تيم صوت جوناثان براون العميق :

«ولكنى لا أحب أولئك الخدم الأسرى فهم كسالى ويهربون» . وأخذنا نضحك .

واصل تيم حديثه هكذا : «استمع الثرثار العجوز لرأى زوجته وها نحن هنا الآن» .

«عندما يذوب الجليد ويأتى الربيع سوف أرحل . هل ستأتيان معى؟» .

قلت : «أريد أن أغادر الآن . سأذهب إلى مستوطنة السود حيث تعيش جدتى» .

هز رأسه : «لا . إنها قريبة جدًا . ذلك أول مكان سيبحث فيه براون عنا . ولا نستطيع أن نهرب فى الشتاء . فإذا لم نجد ملجأ سنموت من البرد» .

أطفأت الشمعة وقلت : «إذن عندما تعود الأشجار للحياة ، سوف نرحل» .

همس جوزيف بصوت أجش فى الظلام «كلاكما أحمق . سوف تكون حرًا بعد أربع سنوات يا تيم ويمكنك أن تبدأ حياة جديدة هنا حتى فى ماساتشوسيتس» .

«لا أستطيع أن أنتظر كل تلك الفترة» .

قلت : «سوف نرحل عندما تعود الأشجار للحياة . لابد أن تأتى معنا يا جوزيف» .

قال جوزيف : «سوف تندمان كلاكما على هروبكما» وسوف ينتهى بكما الحال إلى سيد أسوأ من براون» .

الفصل السابع عشر

قرارات

سالم - ماساتشوسيتس

مارس «آذار» 1790

بحلول نهاية شهر مارس «آذار» أصبحت الشمس أكثر دفئًا والنهار أكثر طولاً . وفى عصر أحد الأيام عندما نثرت الطعام على الأرض ، وأخذ الدجاج يتدافع حول قدمى ، شدت انتباهى جلجلة عربة يجرها الحصان .

«هيا يا كوفى . اترك الدجاج وتعال معى لنسلم هذا الخشب . فقد ذهب الثرثار إلى لين» .

قفزت على العربة بجوار تيموثى . كنت أعرف أن السيدة ستظن أنى أقوم بحلب البقر ولن تبحث عنى لبعض الوقت . فهى لم تعد تعطينى دروسًا ، فيما عدا أيام الأحد عندما كنا نقرأ الكتاب المقدس . كانت لاتزال لطيفة معى ، ولكن يبدو أنها تضايقت عندما قلت لها إنى أريد العودة لوطنى . وكنت أتساءل ما إذا كانت أخبرت زوجها ولم أجزم بذلك لأن تصرفاته معى كانت كما هى . فأنا هناك فقط لأعمل وأتصرف بكياسة .

وكانت تذكرنى دائمًا : «كوفى إنها إرادة الله أن تُنقذ . ذلك هو السبب إنه أرسلك هنا» .

وكنت أقول لنفسى لم يكن الله ، وإنما شارو هو الذى أرسلنى هنا . كان تيموثى يعرف طريقه فى القرية . وأثناء سيرنا بالعربة

أخذت أعزف الفلوت عاليًا كما أريد . لقد سرنا فى طريق تحفه الأشجار العارية . كانت السماء زرقاء جدًا ، ولم يعد البرد قارسًا . كنا نستطيع أن نبدأ أنا وتيم عمل خطط حقيقية للهرب ، فالربيع على الأبواب .

أنزل تيموثى حمولة خشب فى مزرعة مجاورة ، وتوقعت أن يستدير للعودة ولكنه انطلق بالحصان للأمام مباشرة .

سألته : ألسنا عائدين الآن؟

«أريد أن أتوقف مرة ثانية . لا تقلق سأعيدك قبل أن تكتشف السيدة غيابك» .

ذهبنا بالعربة إلى الحانة الواقعة على نفس الطريق الذى يقود إلى الكنيسة . ربط تيم الفرس ، ومشينا حول الحانة إلى الخلف . وقابلنا فتاة شعرُها بلون «القرع» تلقى بدلو من الماء القذر وهى تحيى تيم : «صباح الخير يا تيم . أتيت مبكرًا اليوم» .

«هل جاء أى من الزبائن بعد؟»

· «هناك بعضهم ولكنى لا أعرف إذا كانوا يريدون أن يسمعوا غناءك ويشاهدوا رقصك مبكرًا هكذا؟»

لم يكن عندى فكرة عما يحدث ، ولكنى كنت سعيدًا أن أكون بعيدًا عن المزرعة .

ووضع تيموثى ذراعه حولى وقال لى : «انتظرنى بالخارج» .

وقفت بجوار الباب وحدقت النظر بالداخل ، بينما دخل تيموثى مع الفتاة . كانت الصالة مزدحمة بالموائد وبها مدفأة كبيرة .

خلع تيم كابه الصوفى المتسخ ، ووقف فى وسط الغرفة وبدأ يغنى . لم أستطع أن ألتقط كل الكلمات ، ولكن الإيقاع البطىء جعلها تبدو أغنية حزينة بالنسبة لى .

كان عديد من الرجال يجلسون على مائدة ، وقد تجاهلوه فى البداية . ولكن تيم له صوت عال صاف جذب انتباههم فى النهاية . وأخذوا يطلبون منه أن يغنى أغنية أخرى وأخرى . وعندما انتهى ألقى الرجال عملات نقدية له . وانحنى والتقط نقوده وأعطى الفتاة عملة معدنية وغادرنا المكان .

«انظر ، تلك هى الطريقة التى أجمع بها بعض النقود الإضافية يا كوفى . وأبيع قطعًا قليلة من خشب السيد» . أخذ يضحك ويحك ذراعه .

سألته : «أنت تسرق خشب براون؟» .

وومضت عيناه . «أنا لا أسمى هذه سرقة . فقط آخذ ما لا يدفعه الثرثار لى . هذا عمل كما تعرف . أحيانًا أقطع شجرة صغيرة لا يشعر السيد بعدم وجودها ثم أبيعها بسعر رخيص لكبار السن فى مستوطنة السود» . نظر تيم إلى السماء الزرقاء الصافية ونحن ذاهبان بالعربة نحو المزرعة . «الربيع قادم ، أستطيع أن أشمه» .

قال تيم وهو يجذب لجام الفرس «ما رأيك؟ أنت تعرف . خطرت لى فكرة الآن فقط . أستطيع أن أعلمك أغنياتى وأنت تعزفها على الناى . بذلك . تستطيع أن تجمع نقودًا لنفسك ، أنت أيضًا» .

وابتسم قائلاً : «كوفى ، أنا وأنت وجوزيف يمكننا أن نذهب إلى بوسطن ولدينا نقود» .

وعندما وصلنا إلى البوابة الخشبية التى تقود إلى البيت لمحت السيدة تتجه نحو حظيرة الماشية ، وعرفت أنها كانت تبحث عنى . وقفزت من العربة وأسرعت نحو المرحاض الخارجى ، وهو ثانى مكان أعرف أنها ستبحث فيه عندما لا تجدنى فى الحظيرة .

بقيت هناك منتظرًا أن تطرقه «كوفى ضروع الأبقار تكاد تنفجر من الحليب ، إنها تحتاج أن تحلبها» .

أخذت أتأوه «أنا كنت مريضًا . كانت معدتى تؤلمنى اضطررت أن آتى هنا» .

«معدتك تؤلمك؟» .

«آه نعم يا سيدتى ، ولكننى أشعر أننى الآن أفضل بعد أن قضيت حاجتى» .

قمت بعملى بقلب مبتهج . قريبًا لن أبقى أسيرًا .

وبعد ذلك ببضعة أيام تسللت إلى الحانة مع تيم مرة ثانية . لم أخش أن تبحث عنى السيدة هذه المرة لأنها أرسلتنى لأجمع حجارة .

وقام تيموثى بتسليم الخشب ، وبعد ذلك ذهبنا إلى الحانة . وفى الطريق سألنى «هل يمكنك أن تعزف لى؟» .

«غنٍّ مرة وسوف أسمع» .

غنى تيم والتقطت النغمة وعزفتها له . كانت أغنية إيقاعها بطىء ولحنها عذب . وبين الوقفات كان يغنى ، وأضفت بعض النغمات من الموسيقى التى كنت أعزفها فى بلدى .

ولأن الوقت كان قرب الظهيرة ، كانت الحانة مزدحمة بالرجال - يشربون ويتحدثون بصوت عالٍ . وتذكرت رحلتى على سفينة العبيد . ولم أكن أريد أن أدخل . ولكن تيم دفعنى للداخل .

ألقى الناس عملاتهم علينا عندما انتهينا ، وبعد ذلك رقص رقصته التى يقفز فيها يدك الأرض بقدمه ، وهى الرقصة التى رأيته يرقصها على سفينة العبيد ، فأعاد لى ذاكرتى ذلك الوقت . تتبعت بالناى إيقاعه وهو يرقص ، وعزفت له بينما ألقى الناس مزيدًا من العملات النقدية علينا .

كنا نضحك أنا وتيموثى ونحن نخرج من الحانة وجيوبنا مليئة بالعملات المعدنية «نحن أغنياء الآن ، أليس كذلك يا غلام؟» .

ومزحت «سوف نشترى مزرعة الثرثار» .

قال تيموثى وهو يضرب بذراعه كأنه يضرب أحدًا بالسوط : «نعم ، وسوف نضربه بنفس السوط الذى يحب أن يضربنا به» .

وتذكرت ما كان كويسى قد قاله لى ، وقلت : «لن نرد على الشر بالشر» .

بدأ تيم يقول شيئًا لى ، ولكن عندما انطلقنا بالعربة من الحانة وأسفل الممر الضيق رأينا المزارع ادواردز .

«يا لحظنا اللعين يا كوفى . آمل ألا يكون قد رآنا ونحن نغادر الحانة» .

قلت له : «لم يرنا» ولم أعد أفكر فى الأمر . أخذت أعزف على الناى بينما كنا عائدين إلى المزرعة ، مستمتعا بقطعتى الصغيرة من الحرية المسروقة .

وأثناء تناول العشاء أخذ براون يردد صلاة المائدة كالعادة وأكلنا فى صمت . عاد جوزيف إلى المزرعة مبكرًا ذلك المساء . ودخل معه

إلى المطبخ ، الخباز الذى استأجره . وفى البداية ظننت أن جوزيف قد اقترف خطأً ما .

«إنه عامل ماهر ، ولكنى سأغلق مخبزى ولن أحتاج لخدماته» .

وأعطى براون بعض العملات المعدنية ومشى .

فقال براون لجوزيف : «سوف تعمل فى المزرعة حتى أؤجرك خارجها ثانية . هل تناولت طعامك؟»

أومأ جوزيف برأسه .

«املأ برميل الماء ، وضع ماءً فى الأحواض» ، ابتسم جوزيف لنا ابتسامة واهنة وغادر الغرفة .

همس تيموثى ونحن نأكل : «آمل ألا يظل الثرثار يتحدث حتى نموت الليلة . أريد أن نتحدث سويًا» .

قمت بتنظيف المطبخ كالمعتاد عندما انتهينا من الطعام .

قالت السيدة : «يمكنك أن تذهب للفراش عندما تنتهى» .

شعرت بالراحة لأننا لن نحضر الصلاة الليلية الطويلة .

عندما دخلنا غرفتنا الصغيرة سمعت طرقًا على الباب الأمامى ، وتعجبت من القادم ، حيث إن عائلة براون نادرًا ما يأتى إليها ضيوف وكان جوزيف وتيم راقدين على الفراش من قبل ، وكانا يتحدثان بصوت خفيض بقدر ما يستطيعان .

«كوفى ، تيم كان يقول لى إنك ذهبت معه اليوم ، ولكن ينبغى أن تكونا حريصين . . فإذا أغضبتما براون فسوف يتخلص منكما أنتما الاثنين» .

قال تيم «لقد زهقت من نفسى . أنا وكوفى سنرحل . يجب أن تأتى معنا» .

كررت : «نعم يا جوزيف . . تعال معنا» .

هز جوزيف رأسه «أنا لن أهرب لأى مكان . . سوف تندم إذا رحلت يا كوفى عندما تباع لمكان أسوأ من هذا- للولايات الجنوبية أو لكوبا . فأنت لا تستطيع أن تفعل ما يفعله تيم!» .

قلت : «لماذا؟»

«لأنك عبد أسود وتيم أبيض» .

«أنا أشانتى! وتيم عبد أبيض!»

«انتظر لحظة يا صديقى ، أنا . . .»

«اصمتا! أنتما الاثنان . . لا أريد أنْ أُجلد الليلة» .

همس تيم عابسًا : «يمكننا أن نذهب إلى بوسطن أو نيويورك» .

قال جوزيف : «لا نستطيع أن نذهب معك ، من السهل عليك أن تهرب فأنت أبيض ، ذلك هو السبب أن مواطنى نيو إنجلاند يفضلون أن يكون لديهم عبيد . فأنتم الخدم الذين تعملون بعقد يمكنكم الهروب والذوبان فى أى مكان» ، وجلس جوزيف عاقدًا ساعديه .

ورد تيم «أقول لك يا صديقى إن بوسطن مدينة كبيرة ونيويورك أكبر ، وعندما نصل هناك فلن يجدنا أحد» .

قال جوزيف برزانة : «ربما لن يجدوك أنت يا تيم ولكن حتى إذا وصلنا إلى بوسطن ، فالمتوقع أن يطلب أحد رؤية أوراق كوفى وأوراقى»

قال تيم : «أنت فقدت كل الشجاعة التى كانت لديك من قبل» .

«هناك قانون . كل من ينحدرون من أصل إفريقى لابد أن تكون معهم أوراق من الحكومة تقول إنهم يمكنهم أن يعيشوا فى ماساتشوسيتس» .

«هل لديهم هذا القانون اللعين فى نيويورك؟»

«ولكنهم سيوقفوننا هنا» .

سوف نرحل ليلاً وإذا أوقفوننى فسأقول إنكما تنتميان لى» .

وضحكت على فكرة أننا ننتمى لـ «تيم» .

قال جوزيف : «أنت مثير للسخرية . أى نوع من الوجهاء ستكون بهذه الساق القذرة هذا والشعر الهائج ورائحتك التى مثل رائحة الخيل؟ كيف سيكون لديك عبيد؟»

اقترحت «ربما يمكن أن ينظف نفسه ويرتدى ملابس الوجهاء» .

«إنها فكرة حمقاء . إذا ذهبنا إلى بوسطن أو نيويورك ، كل ما يمكن أن نفعله أنا وكوفى ، هو العمل صبية فى إسطبل للخيول . سنكون فى حال أسوأ مما نحن عليه الآن . أنا زرت المكانين ورأيت كيف يعانى السود الأحرار ، نعم قد يكون من الأفضل لتيموثى أن يهرب . إذا نظف نفسه وارتدى بعض الملابس الأنيقة على جلده الخشن ، ربما يصبح فعلاً سيدًا يومًا ما . أما نحن فلن نستطيع يا كوفى أبدًا» .

ودمعت عينا جوزيف عندما كشف عن الأشياء التى كان دائما يحتفظ بها داخله . «بالنسبة لنا يا كوفى . . الهروب يعنى فقط

الفقر والجوع ، هذا إذا لم يقبضوا علينا وإن فعلوا فإننا قد نسجن ونباع مرة أخرى .

لم أعد واثقًا فيما ينبغى أن أفعل : هل أبقى مع جوزيف أم أذهب مع تيم . لو كنت صبورًا فى الماضى لكنت بقيت فى بلدى ، ولكن كما يقول التمثال الذهبى «لا فائدة من الندم على ما فات» . ولو بقيت مثل جوزيف ربما أظل أسيرًا للأبد . كنت أوشك على الحديث عندما فتح باب غرفتنا بقوة وملأ الغرفة الهواء البارد الذى يتبع براون دائمًا .

انتزع براون تيموثى من فراشه قائلاً : «أنت وذلك الشيطان الأسود الصغير ترقصان وتلعبان فى الحانة» .

«كلا يا سيدى لم نكن داخل الحانة» .

«أنت وغد كاذب . فقد رآك المزارع إدوارد أنت وهو تغادرانها» . وأشار بإصبع اتهام طويل علىّ .

«تتسللان إلى الحانة!» أخذ يهزى وهو يضرب تيم .

وبعد ذلك حوّل غضبه إلىّ ولكنى أمسكت بالشمعدان . سمعت جوزيف يصرخ «لا يا كوفى» وهو يوقعه من يدى . أوسعنى براون ضربًا ، ومع ذلك رفضت أن أبكى . كان وجه تيموثى غاضبًا . «سيدى نحن توقفنا فقط عند الباب الخلفى للحانة لنشرب ماء . وكان حلقى جافا يا سيدى من التراب الذى أثرناه بالعربة فى الطريق» .

أخذ يضربنى بالسوط على صدرى وكتفى ، وشعرت كأن مليون من النمل الأحمر تلدغنى . وضربنى براون مرات عديدة بينما كانت الساعة تدق عشر مرات . وفى النهاية صرخت .

أمرنى «اسكت!» ، كورت نفسى وأخذت أتشنج بينما أخذ هو يضرب تيموثى ثانية .

لقد سأل المزارع الطيب عما تفعلانه هناك ، وعرف أنكما تتسكعان هناك بانتظام ترقصان وتغنيان ومن يدرى ما الذنوب الأخرى التى ارتكبتماها هناك؟! أين ذلك الناى الذى كان الإفريقى يعزف عليه؟

وانطلق عقلى كالأرنب المُطارد وقلت : «ليس عندى ناى» .

ساعدنى تيم قائلا : «لقد كان فلوت متشرد عجوز سمح له بأن يعزف عليه ، وسمعت جوزيف يتنفس بجهد محدثًا صوتًا كالصفير من السكون المظلم . وفجأة جذبنى أنا وتيموثى من على فراشنا وأمرنا : اذهبا إلى المطبخ» .

مشينا باضطراب إلى المطبخ تتبعنا الظلال الطويلة التي تلقيها الشمعة التى يحملها ، أمرنا «انزلا على ركبتيكما» .

نزلنا على ركبتينا أمام الموقد البارد المظلم ، ووقف فوقنا وذراعه مرفوعة ، ممسكًا بالشمعة فى يده ، وجعلتنى الظلال أتساءل ما إذا كنت فى عالم حقيقى أو عالم الأرواح؟!

وجعل ضوء الشمعة الساقط على وجهه الأبيض كأن براون أحد الأقنعة التى تخيف الأرواح الشريرة وتبعدها .

«يا إلهى اشمل بنورك هذين الشقيين . وانقذهما من اللعنة والجحيم الأبدى . وانزع الشيطان من روح الإفريقى الأسود» .

لم أفهم معنى كلمة الشقى! وكان جسمى يؤلمنى من الضرب وتمنيت لو يتركنا نذهب للنوم ، وبدلا من ذلك أخذ يعذبنا بصلاة طويلة ، وعندما دقت الساعة اثنتى عشرة مرة سمعت غطيطًا عاليًا بجوارى ، فقد نام تيموثى مما أشعل غضب براون من جديد .

ضربنا ثانية وأرسلنا إلى الفراش . ولكنى كنت سعيدًا ، فالآن لم يعد لدى شك فيما إذا كنت سأرحل أو أبقى مع جوزيف .

لم يكن عقابنا قد انتهى . فقد استيقظت قبل الآخرين ، وأول شىء فعلته هو أنى أخفيت الفلوت فى الخزانة ، وعندما جاء الجميع إلى المطبخ لتناول الإفطار الذى قدمته لهم . وعندما بدأ تيم يجلس جذبه براون بعيدًا عن المقعد . وقال : «اركع أمام المدفأة ياتيم وأنت ياكوفى ، عندما تنتهى من خدمتنا ألحق به ، وقد حاولت الصلاة من أجلكما أنتما الاثنين ، والآن الأفضل لكما أن تصليا من أجل خلاصكما» .

جعلنا نركع طوال الصباح ، قام جوزيف بأداء الأعمال التى أقوم بها ، ولكن عندما كانت السيدة تترك الغرفة كان يدس لنا قطعة خبز . وبينما هى ذاهبة لحلب الأبقار التفتت السيدة إلى جوزيف قائلة : «إذا سمحت لهما أن ينهضا أو أعطيت لهما طعامًا فسوف تنال نفس العقاب» .

تعجبت من قولها ، فقد سبق لى أن توقعت أنها عطوفة . وحملقت فينا نحن الاثنين قائلة : «كيف تردان أيها الصبيان على معروفنا بهذه الطريقة؟» وتدفقت الدموع من عينيها الرقيقة البنية اللون . «لقد منحك الله يا كوفى عقلاً ذكيًا ومنحك يا تيم قوة

البنية . هل هكذا تشكرانه؟ وماذا عن زوجى وكل الذى فعله من أجلكما» .

وتركتنا ، ولكن لم تكن عندى أية فكرة عما كانت تقول لى . إنهم هم الذين أخطئوا فى حقى .

انحنى جوزيف باحترام قائلا : «نعم يا سيدتى» . وبقى بجوار الباب المفتوح . «آمان الآن يا أولاد ، إنها تتوجه نحو الحظيرة . ووقفنا على أرجلنا المُتْعَبةِ . وأعلن تيم : سوف أرحل الليلة . لن أبقى لأتعذب يومًا آخر» .

وقلت : «وأنا أيضا سأرحل» .

وأخذ تيم يرقص رقصة التمرد متحديًا «أحاول أن أعيد الحياة لساقىّ» .

وأخذت أقلد خطواته . وشعرت بقدمى كأن إبرًا حادة توخزنى . وضحكت أنا وتيم ، ورقصنا فى بيت الكآبة «بيت براون» . وكان جوزيف ينظر بعصبية للخارج وقال : «إذا توقفتما عن تحديه ، لن يضربكما» .

قال تيم وهو يرقص بقوة أكثر : «من السهل عليك أن تقول ذلك ، فأنت لست معه طوال الوقت» .

كنت أفكر فى شىء واحد فقط ، فقلت وأنا أصب لى ولتيم كوبين من عصير التفاح «دعنا نغادر عندما تدق الساعة الثانية عشرة» شعرت بأننى على ما يرام بالرغم من ساقىّ اللتين تؤلمانى . واستمر جوزيف ينظر للخارج «سوف تندم يا كوفى» .

قلت : «لابد أن أرحل وأنا آسف لأنك ياصديقى لا تفهم

مشاعرى» وابتسم تيم ابتسامة عريضة ، وقال «طوال الوقت الذى كان براون يصلى كنت أخطط فى رأسى» .

ضحكت وقلت : «حتى نمت وارتطمت بالأرض» .

وبدأ جوزيف يسعل ويتنفس بصوت كالصفير .

«إنها قادمة يا أولاد . اركعا ثانية» وأغلق الباب ونظر بعصبية على الأكواب وعصير التفاح ليتأكد أن كل شىء فى مكانه .

وعادت السيدة تحمل دلوين من اللبن ، وفى الحال أحضر جوزيف الجرة من فوق رف المدفأة .

دخل السيد براون وراءها وأمرنا أن نقف . وقال لجوزيف : «لقد أجَّرتُك للمزارع إدواردز» . وبعد ذلك استدار إلىَّ ولتيم قائلاً : «اذهبا إلى أعمالكما اليومية والمرة القادمة التى تتحديانى فيها سوف أتخلص منكما» .

عندما أصبحت بمفردى أخيرًا أخذت فلوتى من الخزانة وأعدته إلى جيبى ، لقد قمنا بأعمال شاقة فيما تبقى من النهار ، وتصرفنا أنا وتيم وكأننا آسفين على سوء تصرفنا ، ولكننا قررنا أن نغادر عند منتصف الليل عندما نتأكد أن السيد والسيدة نائمان . وكنا نرتدى ملابسنا كاملة ونحن فى الفراش مساءً ، ننتظر أن تدق الساعة اثنتى عشرة مرة ، وحاولنا أن نقنع جوزيف ليذهب معنا .

توسلت إليه : «ارحل معنًا يا جوزيف» .

قال تيم : «نحن ذاهبان إلى مستوطنة السود» .

أخذ جوزيف يسعل وبدا أنه يشعر بصعوبة في التنفس ، قال بصوت خشن «ذلك أول مكان سيبحثون فيه عنا» .

قاطعته : «سوف تساعدنا الجدة العجوز» .

قال تيم : معه حق . فالناس فى المستوطنة يساعدون الهاربين . سوف يخفوننا أو يجعلوننا ننسل خارجين من سالم!» .

دقت الساعة اثنتى عشرة مرة . وجذب تيم ذراعى : «هيا يا صديقى . إنه لا يريد أن يذهب» .

«جوزيف . . أرجوك» .

رد جوزيف بصوت حزين : «أنا لست شجاعًا مثلكما أنت وتيم

- رد جوزيف بصوت حزين - .

جذب تيم ذراعى ثانية ولكنى لم أستطع أن أترك صديقى : «جوزيف الأفضل أن تكون صبى الإسطبل وحرًّا على أن تكون عبدًا» .

ودفعنى تيم نحو الباب «سوف أترككما أنتما الاثنان إذا لم تخرج الآن!» .

أوضحت له «إذا أمسكونا فسوف نهرب ثانية مادامت لدينا أرجل تجرى فنحن أحرار . أنا وأنت وتيم سيساعد كل منا الآخر» .

وكم كانت سعادتى حينما قام جوزيف فى اللحظة الأخيرة وارتدى سترته .

الفصل الثامن عشر

الهاربون

كنا قد تركنا باب الممر مواربًا لنفتحه فأحدث صريرًا وتجمدنا في مكاننا . كان جوزيف يتنفس بصعوبة ، وتمنيت ألا تفاجئه نوبة السعال . دفعت الباب لأفتحه فأحث صوتًا أعلى . . تردد تيم وجوزيف ثانية . ولكنى دفعته على مداه وانطلقت للخارج بجرأة ، وأنا أجرى مثل الطائر قبل أن ينطلق فى الهواء . كنت حرًا .

لو كان براون ينظر من نافذة غرفة نومه ؛ لرآنا نجرى إلى البوابة وأسفل الطريق . أخيرًا سأستطيع أن أرى أين تعيش الجدة العجوز .

قاد جوزيف وتيم الطريق ، ولم تكن القرية الصغيرة التى تضم البقية من سكانها فى الحقيقة قرية على الإطلاق ، وإنما مجموعة من المنازل الصغيرة جدًا مبنية من أخشاب الأشجار ، والمتراصة على حافة غابة من الصنوبر . وبسرعة أخذنا تيم إلى منزل صغير بينما كان كلب ينبح من على بُعد . ونقر على الباب : «عمة جويل ، أنا تيم» .

فتحت الباب ودخلنا إلى غرفة صغيرة ، كان فراشها فى أحد الأركان ومائدة ومقعد على كلا الجانبين فى وسط المنزل «يا إلهى ، ما الذى تفعلونه بالخارج فى وقت متأخر هكذا يا أولاد؟» .

قال تيم : «نحن هاربون من السيد براون ونريد أن نذهب إلى بوسطن» .

قالت : «إنها مسافة بعيدة من هنا» . ونظرت إلىّ أنا وجوزيف قائلة : «لقد هربت من سيد قاسٍ مرة ، ولكنه وجدنى وجلدنى ، وهربت منه ثانية ووجدنى و . . .» .

قاطعها تيم : «عمة جويل لابد أن نخرج من «سالم» قبل أن تشرق الشمس» .

«هذا أول مكان سيبحث فيه عندما يكتشف غيابكم» .

جذب جوزيف كُمَّ سترتى وقال : «ذلك ما كنت أقوله لكم ، سيمسكوننا بالتأكيد» .

أشارت إلينا لنجلس على مائدتها الصغيرة ، وجلست على الجانب الآخر : كثير من الهاربين يمرون من هنا ، وقد قطع رجل الأسبوع الماضى كل هذا الطريق من «ميريلاند» . ربما يستطيع صديقى لوكاس أن يساعدكم ، فقد قال لى بالأمس إنه ذاهب لاحتفالات يوم الانتخاب فى «لين» وقالت ضاحكة «إن له قلبًا كبيرًا كجسمه وقد سبق أن ساعد كثير من الهاربين» .

قفز تيم من المقعد واحتضنها وصاح كنت أعرف أنك ستساعدينا .

ابتسمت وأشارت له ليبتعد . «لا تشكرنى الآن . دعنى أر ما سيقوله لوكاس العجوز أولا . سخنوا بعض الماء للشاى» ، قامت بصعوبة من مقعدها وألقت شالها فوق كتفها واتجهت إلى الباب .

أخذ تيم ، الذى كان يعرف مكان الأشياء فى الكوخ الصغير ، غلاية الشاى من فوق المدفأة .

سأل جوزيف ، وعلى وجهه الرفيع نظرة قلق : «افترضا أن الرجل لا يستطيع أن يساعدنا» ماذا سنفعل حينئذ؟» .

قال تيم : «سوف نجد من يساعدنا . فأنا عندى كثير من الأصدقاء» .

كنا نقفز عند سماع كل صوت له أزيز ، ونحن فى انتظار عودة العمة جويل . . وفى النهاية جاءت إلى الكوخ وتبعها رجل قصير كالفقاعة المستديرة ، يحمل آلة الكمان .

مرحبا يا تيم العمة تقول لى «إنك أنت وصديقيك تريدون الذهاب إلى بوسطن» .

فسأله تيم بخوف : «نعم . هل يمكنك أن تأخذنا؟» .

«سآخذكم حتى لين . إنه وقت احتفالات يوم الانتخاب» .

ورفع كمانه «سوف أعزف ألحانى وأجمع بعض عملات معدنية» .

وسأل تيم : «هل هو احتفال كبير؟» .

«نعم . فالناس يأتون من مسافات بعيدة ليلعبوا المباريات ويرقصوا ويقضوا وقتًا طيبًا . فإذا أحبوا موسيقاك ، فيمكنك أن تجمع كثيرًا من النقود» .

رأيت عملات معدنية تومض فى عينىّ تيم الخضراء .

قلت له : «إن السيد براون يذهب إلى لين» .

«نعم . ولكنه كان هناك اليوم السابق ، ولن يذهب إلى هناك فى القريب العاجل» .

نهض تيم وجذبنى من على المقعد ، وكان القلق لايزال يبدو على جوزيف وهو يقف هو أيضا .

وابتسم تيم ابتسامة عريضة قائلاً : «هذا حظ سعيد لنا . نستطيع جمع مزيد من النقود بالغناء والعزف ونؤجر فرسًا رائعًا وعربة لتأخذنا إلى بوسطن» .

قال جوزيف محذِّرًا : «دعونا نخرج من «سالم» ، وسوف نتدبر أمر بوسطن فيما بعد» .

وضعت العمة جويل يديها الذابلتين المتجعدتين حول وجهى «أيها الأولاد ارجعوا إلىّ هنا إذا لم تستطيعوا الذهاب إلى بوسطن أو كانت حياتكم صعبة» . وبعد ذلك نكشت شعر تيم الأشعث وربتت على كتف جوزيف «سوف أخفيكم حتى ييأس المزارع براون من البحث عنكم» .

وودّعنا العمة جويل وتركنا الكوخ ، وبينما كنا نصعد عربة لوكاس ونختبئ تحت كومة من القش ، اختلست النظر حتى أستطيع أن ألقى نظرة أخيرة على القرية الصغيرة التى يعيش فيها الكبار الذين تحرروا من حياة العبودية وشعرت بالقوة ، فقد تركت بيت إسارى وأمتلك لغة هذا البلد فى لسانى ، وعندى العمة جويل لأعود إليها إذا احتجت إلى المساعدة .

وحذر لوكاس «أيها الأولاد ابقوا مختبئين . لأنهم إن أمسكوا بى وأنا أنقلكم ، فسوف يأخذوننى إلى عمود الجلد معكم» .

واستغرق ثلاثتنا فى نوم عميق ، ولم نستيقظ حتى وصلنا بعد الظهر إلى مدينة «لين» بماساتشوسيتس . لم أستطع أن أصدق المشاهد التى رأيتها .

أعلن لوكاس «حسنًا يا أولاد . . ها نحن قد وصلنا» . وكانت هذه أول مرة أرى فيها عددًا كبيرًا هكذا من الناس السعداء فى هذا البلد . وشرح لوكاس الاحتفال لنا .

قفز ثلاثتنا من العربة التى ربطها لوكاس فى شجرة بجوار الرصيف حيث تقف العربات والخيول الأخرى . «دعنى أريكم أين سنعزف» .

- قال لوكاس وهو يؤرجح الكمان ويثب أمامنا - .

وبعد أن أزلنا القش عن رءوسنا وملابسنا ، تبعناه إلى ما وراء المتاجر والشوارع المرصوفة بالحصى حيث يوجد سوق كبير ، حمل إلينا هواء الربيع الجميل صوت الموسيقى وهواء الربيع . رأيت بعض النساء اللائى ذكرتنى الشالات الجميلة التى يرتدينها بالأثواب الأشانتية وسألت جوزيف وتيم «من هؤلاء الناس؟» .

وأجاب لوكاس «إنهم هنود . لقد كانوا هنا دائما قبل أن يأتى الرجل الأبيض» .

خرج الجميع للاحتفال بيوم الانتخاب وأخذوا يرقصون ويغنون معًا - البيض الفقراء مثل تيم ، السود ، البحارة ، الهنود ، رجالاً ونساءً . وذكرنى العزف على الكمان والغناء والرقص بالاحتفالات فى وطنى .

كان نساء ورجال سود وهنود يبيعون اللحم والحلوى والمجوهرات وتحفًا منقوشة ، شالات وقصعات ، وسلالاً وأشياء أخرى من صنع أيديهم . كانت النساء من السود يرتدين أغطية رأس وتنورات ملونة

بألوان مشرقة ، والنساء الهنديات يضعن خرزًا فى شعرهن الأسود غير الجعد .

وفتحت عينيّ على مداها ، وأنا أنظر إلى السماء الزرقاء المشرقة ، لأننى لم أفكر أبدًا فى أننى سأجد كل هذه الألوان والحياة فى هذه الأرض الكئيبة . وكنت حقًا سعيدًا . لن يجدنا براون أبدًا وسط كل هذا العدد من الناس .

كان الناس يشربون ويرقصون ويلعبون الـ «بوبو» ، وهى لعبة يعرفها تيم جيدًا من السفن .

شرحها تيم : «يلقى المتسابق أربع عملات صدف فإذا سقطت ثلاث منها ووجوهها لأعلى فإنه يخسر ، وإذا سقطت جميعها ووجوهها لأعلى فإنه يفوز ، ويمكننا أن نلعب بعد أن نجمع بعض النقود» .

فحذره جوزيف : «سوف تخسر كل شىء تجمعه» . ووضع لوكاس كمانه تحت ذقنه «اتفقنا يا أولاد . دعونا نرى ما يمكن أن نفعله» . وعزف لوكاس أغنية كان تيم يعرفها . فغنى وأخذت أسمع حتى استطعت أن ألتقط النغمة وأنضم إليهما .

بدأ الناس يتجمعون حولنا ويلقون بالعملات المعدنية التى أخذ جوزيف يجمعها . شعرت أنى كنت فى وطنى .

عزفنا موسيقانا وأكلنا سمكًا مقليًا ، وشربنا عصير التفاح ، ولكن تيم شرب شرابًا مختلفًا وكلما كان يشرب أكثر كان يغنى بصوت أعلى .

وقسمنا النقود التى جمعناها بالتساوى مع لوكاس ، وقد كسبنا نقودًا كافية لندفع لصبى الإسطبل نصف دولار ليدعنا ننام فى الإسطبل الذى كان يعمل فيه .

وقال لوكاس : «حسنا يا أولاد ، لقد قضينا وقتا ممتعًا ، سوف أذهب لأنام فى العربة وأتوجه إلى «سالم» مع شروق الشمس» .

وسأله جوزيف : «ألن تبقى معنا يومًا آخر؟»

«لا . لابد أن أعود إلى مدينتى ثانية ولقد جمعت ما يكفى لشراء بعض علف الدجاج وبعض الأشياء القليلة الأخرى التى أحتاجها . أتمنى لكم حظًا سعيدًا ونجاحًا باهرًا» وصافحنا وشكرناه .

فى الصباح التالى تجولنا إلى السوق واشترينا «سجق وقهوة» للإفطار . ورفع تيموثى رأسه عندما مررنا بالميناء ووجدنا مكانًا تحت شجرة قيقب ظليلة . «أشعر أن رأسى سينخلع منى» .

قال جوزيف : «ذلك من المشروب الذى شربته . لقد حذرتك» . جوزيف نفسه كان يسعل كثيرًا وبدا أنه يعانى من صعوبة فى التنفس ، أما أنا فقد شعرت أنى منتعش وأمتلئ بالأمل ، وكاد تيم يطير من الفرح» .

«لقد كسبنا خمسة دولارات أمس . معنا نقود تكفى لشراء ملابس جديدة و . . .»

«ونحتاج أن نذهب لبوسطن هل تذكر؟» قاطعه جوزيف الذى كان يستند على شجرة : «سوف ندفع لأى أحد لديه فرس وعربة ؛ ليأخذنا» .

قال تيم : «الاحتفال لم ينته يمكننا أن ننتظر يومًا آخر ونجمع مزيدًا من النقود» .

«أنت تعرف أن السيد يبحث عنا فى كل مكان فى هذا الوقت» .

وأخذ جوزيف يسعل بعصبيته .

أخذت رشفة من القهوة القوية الساخنة ، وبعد ذلك ناولتها لجوزيف ، «تفضل اشرب قهوة ولا تكن قلقًا جدًا هكذا» .

أصبح السوق مزدحما . وسرعان ما بدأ اليوم الثانى من المهرجان ، وقضينا وقتًا أجمل حتى من اليوم السابق .

كنت مندهشا من الرقص المفعم بالحيوية الذى يرقصه الناس .

كانوا يلفون ويدورون مثل الدوامات الملونة . الجميع كانوا يرقصون معا - سودًا بيضًا ، أو هنودًا . شعرت كأننى ملك الأشانتيين عندما كانت العملات تلقى عند قدمى ، والوجوه من كل الألوان تبتسم ناظرة إلىَّ . وعندما عزفت على الناى ، ألَّفت ما بين إيقاعات ونغمات بلدى الألحان الجديدة التى أسمعها . تعلمت مزيدًا من النغمات ، وأخذ تيم يرقص ويغنى حتى أصبح مثل جزرة كبيرة حمراء ، وكان جوزيف يجمع النقود أولاً بأول .

وازداد الناس حولنا بينما جعلنا هذا العدد الكبير يدور كعاصفة رياح . حتى أن رقصت رقصة تيم وأنا أعزف والناس يغنون . وابتسم تيم ابتسامة عريضة بينما كنت أرقص معه مضاهيا خطوته تماما . لقد وجدنا تشجيعًا من الجميع وحتى جوزيف كان يبتسم وهو يجمع العملات .

وفجأة فغر جوزيف فاه فى دهشة ، وشعرت بذراع تلتف حول رقبتى وتجذب رأسى للخلف .

الفصل التاسع عشر

القبطان

صرخ أحد الناس فى وسط الزحام «دعهم وشأنهم» بينما صارعت لأخلص نفسى من القبضة الحديدية وأخذت ألوى نفسى حتى واجهت مهاجمى . ووجدت نفسى أحملق فى وجه السيد براون . وقد أمسك أيضا «تيم» بإحكام بيده الأخرى ، بينما أصيب چوزيف بنوبة سعال خانق .

وقال بصوت عال عميق :

«هؤلاء الأطفال تابعون لى»

صاح أحد الناس : «دعهم يذهبوا» . رفست براون فى قصبة ساقه ، وفى نفس الوقت تدفق الناس للأمام لينقذونا .

«لماذا تفسد متعتنا» قال بحار طويل ذو لحية حمراء زاهية وهو يشد براون بعيدًا عنا بسهولة كأنه ينسل قطعة من قماش .

وقعت ولكننى نهضت وشققت طريقى وسط جموع الناس .

صرخ براون : «أوقفوهم!»

وصاحت امرأة فيه «اذهب بعيدًا»

أخذت أجرى وألقيت نظرة سريعة خلفى . كان جوزيف وتيم يتبعانى ، ونشب عراك بين بعض الرجال وبينما كنا نجرى مرت بنا مجموعة من الشرطة متجهة نحو الجموع الغاضبة .

قال چوزيف بصوت خشن : دعونا نذهب إلى الإسطبل . يمكننا أن نختبئ هناك ، ولكن عندما تركنا الحارة وعدنا إلى الشارع ، رأينا براون من على بُعد ومعه رجال الشرطة قادمين فى اتجاهنا .

استدرنا وجرينا فى الاتجاه المعاكس لأنهم كانوا يقفون فى الطريق المؤدى إلى الإسطبل .

صاح براون : «أوقفوهم» .

وصرخ شخص آخر : «لصوص» .

وحاول بحار أن يمسك بنا ، ولكننا كنا أسرع منه . ونزلنا السلالم التى تؤدى إلى رصيف تحميل السفن وتفريغها وقبل أن نفكر حتى فيما سنفعله جرينا فوق سقالة مركب شراعى ولكننى توقفت فجأة ، متذكّرًا رعب تجربتى السابقة على السفينة . كنت خائفًا أن أدخل وكان تيم أقوى منى ودفعنى فوق السفينة . وكان چوزيف قد سبقنا وجرى على ظهر السفينة تجاه عدة براميل .

تذكرت ذكريات سفينة العبيد المرعبة وحاولت أن أقاوم تيم ولكنه كاد يحملنى ويلقينى خلف البراميل .

أمرنى تيم أن أصمت قائلاً : سوف نبقى هنا فقط بضع ساعات يارفاقى ، لابد أن نفلت من براون . قد تكون . . .

سكتنا لما سمعنا وقع أقدام تقترب منا ، كان صدر چوزيف يعلو ويهبط وهو يحاول ألا يسعل ولكنه لم يستطع أن يكتم السعال . ولما تملكته النوبة توقف وقع الأقدام وأخذ يسعل فتوقفت الأقدام .

وصاح صوت : «من هناك؟»

وتناثرت حبات العرق على وجه چوزيف وهو يحاول ألا يسعل ثانية . وربت تيم على ظهر جوزيف ومسحت وجهه بكم قميصى . وبدأت عينا چوزيف تحملقان لأعلى بينما كان يحاول ألا يسعل .

نادى الصوت ثانية «من هناك؟» .

رفع تيم أصابعه إلى شفتيه ، وحذرنى ألا أرد بينما كنت أسمع قلبى يدق فى صدرى . وظللنا جميعا ساكنين كالتماثيل ولكن رياحًا قوية أرجحت السفينة على جانبها فانقلب البرميل الفارغ الذى كان يخفينا على الأرض .

لابد أننا كنا مثل جرو مذعور . وأخذ چوزيف يسعل ولم يعد يستطيع أن يكتم أنفاسه .

أمرنا الرجل : «اخرجوا فى الحال»

اندهشت عندما رأيت أنه لم يكن رجلاً أبيض . بل كان قصيرًا قويًا ممتلئ الجسم ذا بشرة نحاسية اللون ، ووجه مستدير وفم وأنف ممتلئين . وكان شعره المجعد يلمع فى ضوء الشمس المنتشر على ظهر السفينة . وكانت حلته مصنوعة من قماش منسوج على نحو رائع . ما الذى تفعلونه؟ إنها جريمة أن تختبئوا على متن السفينة . ألا تعرفون ذلك؟

ولم يستطع چوزيف أن يكف عن السعال وكنت خائفًا إلى درجة عقدت لسانى عن الكلام وأخذ تيم يعصر يديه وقال : «نحن لسنا مختبئين للتهرب من دفع الأجرة يا سيدى . نحن هاربون من السيد القاسى» .

وكان ينظر بشك إلى الرجل .

«أنت خادم ملزم بعقد إذن؟»

فأجاب تيم : «نعم» .

وحملق الرجل فيّ . «وأنت؟» لماذا تختبئ على سفينتى؟

قلت له قصتى أنا أيضا . . وعلى الرغم من الجدية التى يُنبئ بها وجهه إلا أننى رأيت تعاطفًا فى عينيه .

واستدار إلى چوزيف بعد ذلك «هل أنت عبد؟»

وأومأ چوزيف برأسه وهو لا يزال يسعل .

بدأت أشعر بالهدوء فعلى الأرجح أن الرجل كان زعيمًا كبيرًا وفاضلاً .

«يبدو أنه تم تهريبكم على سفينة عبيد ـ مثل الفتاة التى أنقذتها العام الماضى من على سفينة عبيد كانت متجهة إلى جزر الهند الغربية» وأعاد البرميل مكانه «سأخذكم إلى الطاهى فى مطبخ السفينة . سيعد لكم شايًا ويعطيكم طعامًا . وبعد ذلك سنرى كيف نستطيع معاونتكم» .

وسمعت صوت اهتياج خلفنا فاستدرت حولى بسرعة ، وشعرت بالبرودة تسرى فى أوصالى عندما صعد براون إلى السفينة مع عدد من الحراس والشرطة .

وأخذ براون يصيح بصوت كالرعد «هؤلاء الأطفال تابعون لي» وبينما هو يتوجه نحو تيم يقفز الرجل أمامنا نحن الثلاثة وهو يعترض يد براون الممدودة .

يقول إنك تسيء معاملتهم وإنهم اضطروا للهرب من بيتك .

وتوسل تيم : «أرجوك لا تجعلنا نذهب معه» .

وصحت « أنا أسير» .

والتفت الرجل إلى الشرطى وقال : «هذا الأمر لابد أن تفصل فيه المحكمة» .

وتحدى براون الرجل قائلاً : «وبأى حق تتدخل؟ هؤلاء الأطفال تابعون لى وذلك يُنهى الأمر» .

وحملق الشرطى ذو الوجه الأحمر فى الرجل «أين سيدك؟ من يعطيك الحق أن تبقى هؤلاء الأطفال؟

«لقد كانوا يختبئون على سفينتى وأنا رجل حر . مواطن فى هذه الولاية . اسمى القبطان بول كاف ، وأنتم على ظهر سفينتى . أنا أريد فقط مساعدة هؤلاء الأطفال .

وكان الشرطى يبدو مصدومًا «هذه سفينتك؟!» .

«نعم . أنا معى أوراقى هنا» ومد يده داخل جيبه وأخرج عدة أوراق .

تفحص الشرطى الأوراق بسرعة وبعد ذلك أعادها إليه .

قال براون وهو يجول ببصره في تفاصيل السفينة : « أنا لا أصدقه . إنه على الأرجح خادم القبطان هذه سفينة جيدة» .

«أنا معى أوراقى يا سيدى التى تثبت أننى صادق فيما أقول» .

أومأ الشرطى برأسه لبراون «لا أظن أنه يكذب» .

وجاء عدد من الملاحين على ظهر السفينة فتقدم اثنان منهم وكان أحدهما من السود والآخر هنديًا .

«هل هناك مشكلة يا قبطان؟ سأله أحدهما .

«لا . كل شيء على ما يرام» انحنيا انحناءة خفيفة وعادا أسفل السفينة .

وتمتم براون : «افترض أن هذه سفينته» .

«هؤلاء الأطفال لا ينبغي أن يُجبروا على العودة إلى هذا السيد حتى تُسمع شكواهم» قال القبطان كاف ، وهو ينحني قليلا نحو براون : «كمواطن في هذه الولاية أصر على أن القانون لابد أن يُتَّبع» وحملق مباشرة في الشرطي : «أنت تعرف يا سيدي إنه غير قانوني أن تجلب عبيدًا إلى ماساتشوسيتس ، وأيضا حتى إذا كان الأطفال عبيدًا أو خدمًا ، فإذا أساء السادة قساة القلوب معاملتهم فلديهم الحق في أن يقدموا عريضة إلى المحكمة لإخلائهم من المنزل» .

وبدأ تيموثي يصيح «أرجوك يا سيدي أرجوك يا سيد كاف لا تجعلني أعود ثانية إليه» وأشار إلى براون .

وانضممت إلى تيموثي وأنا أصرخ أيضا ، بينما كان چوزيف يسعل .

أمر الشرطي «اسكتوا جميعكم! لابد من إيداعهم في السجن حتى يقرر القاضي ماذا يفعل معهم» .

قال تيم «نحن لسنا مجرمين» .

ودفعنا الشرطي بين الحارسين «يمكنك أن تقدم عريضة التماس من أجل حريتهم يا قبطان ، ولكن السيد براون له حق في المطالبة بهم . . إنه القانون وعليّ أن آخذهم إلى السجن» .

تركنا القارب ورجعنا إلى وسط المدينة ونحن نسير بين الحارسين والشرطى . ووعد القبطان كاف أن يساعدنا ويبقى فى «لين» حتى يتم إطلاق سراحنا .

وبينما كنا نسير عبر رصيف الميناء كنت أسمع الاحتفالات . الحياة تتغير فى طرفة عين .

وضعونا فى زنزانة صغيرة وكريهة الرائحة ، وشرح لى تيموثى وچوزيف ما هى المحكمة ومن يكون القاضى بينما كنا نرقد على كومة من التبن على الأرض .

قلت لهما : «إنها مثل حكماء العشائر والرؤساء فى بلدى . وعندما أعود لوطنى سوف يعاقب رؤساء القبائل هؤلاء الذين اختطفونى» .

قال چوزيف : «كوفى ، ربما لن ترجع إلى وطنك أبدًا ، ولكن إذا ساعدنا القبطان سوف نكون عى الأقل أحرارًا ونمتلك أوراقًا تسمح لنا بأن نعيش ونعمل فى ماساتشوسيتس» .

وزارنا القبطان كاف ذلك المساء وأحضر لنا معه خبزًا وجبنًا ولبنًا وبعض البطانيات لننام عليها .

قال لنا «فى صباح الثلاثاء ـ سيستمع القاضى إلى العريضة التى قدمتها بالنيابة عنكم واستأجرت محاميا يعارض بشده مثلى عبودية الإنسان» .

وسأله تيم الذى كان هادئا على غير عادته« لماذا تريد أن تساعدنا؟»

«يا بنى لقد أحضروا والدى إلى هنا من إفريقيا وجعلوه عبدًا وعندما أصبح حرّا تزوج أمى ، التى كانت من قبائل الوامبانواج وهم السكان الأصليون الذين عاشوا هنا قبل البيض ، ونظر إلى كل منا بعمق ، أنا إنسان ولدت من جنسين محتقرين فى هذه الأرض ـ الهندى والإفريقى . وأنا أكره العبودية وأعتزم محاربتها قدر استطاعتى ، توقف وبدا أنه مستغرق فى التفكير للحظة ولكن استرسل «أنا من طائفة الكويكرز المسيحية ونحن ضد العبودية . إننا نؤمن بأن نور الله يضىء علينا جميعا . وعندى فتاة تعيش مع عائلتى منذ عام ، أنقذتها من سفينة كانت تُهرب العبيد ضد القانون إلى رودايلاند وقال چوزيف يستشرف المستقبل دائمًا» : «سيدى ، إذا لم يجبرونا على العودة إلى براون ، فماذا سنعمل؟» .

يمكنكم العمل معى ، فأنا أحتاج إلى صبية يتدربون لبناء سفنى .

وخفض رأسه «هذه العبودية شىء فظيع ولكن ذات يوم سوف تعيد سفنى هؤلاء الذين يريدون العودة إلى أوطانهم الإفريقية» نظرت إليه غير مصدق . هل هذا حقيقى أن قبطان السفينة العطوف هذا ليس تاجر عبيد؟ هل يستطيع أن يعيدنى لوطنى؟ قلت له «سيدى ، سيدى ، شكر جزيلاً» .

«ضحك تيموثى وچوزيف عندما لاحظا أننى وقعت فى خطأ فى النطق وصححا لى الخطأ ، كان يجب أن تقول : شكرًا جزيلاً» .

قلت للقبطان : «هل ستعيدنى إلى وطنى غدًا؟» .

«كلا يا بنى ليس غدًا ولكن بمجرد أن أكون قادرًا على ذلك» .

لم أستطع أن أخفى خيبة أملى ، ولكن عندما فكرت فى قلة صبرى أثناء الوقت الذى قضيته فى بيت آتا منتظرًا مساعدته لى - عاهدت نفسى أن أنتظر حتى يستطيع القبطان كاف أن يعيدنى لوطنى ، وألا أحاول أن أغادر بمفردى .

مر كل يوم يبدو كأنه مائة موسم ونحن فى انتظار المثول أمام القاضى ، وفى النهاية جاء صباح الخميس ، ووصل القبطان كاف إلى السجن ، ومعه ملابس نظيفة وجديدة لكل منا ، وأعطانى سترة وبنطالاً على مقاسى وتركنا السجن ورافقنا اثنان من الحراس والشرطى إلى المحكمة حيث سيحدد القاضى مصيرنا .

لقد كانت المحكمة على بُعد خطوات قليلة عبر فناء من السجن . انتهت احتفالات يوم الانتخاب قد انتهت وكانت الموسيقى الوحيدة التى نسمعها هى زقزقة العصافير على الأشجار المزهرة . وقال تيم : «أرأيت أنه كان فى مصلحتنا أننا ذهبنا إلى السفينة؟!» .

فتنهد چوزيف «هذا يتوقف على ما سيحدث . . فالقاضى يمكن أن يجبرنا على العودة إلى السيد براون» .

الفصل العشرون

جلسة المحكمة

اقتادونا إلى مقعد المساجين فى مقدمة غرفة طويلة ، ينيرها بصيص من نور ، يأتى من نوافذ عالية ضيقة . وذكرتنى المقاعد التى يجلس عليها عدد من الناس ، والمنصة المرتفعة فى أول الغرفة بدار الاجتماعات لدينا . جلس القبطان كاف خلفنا بينما جلس جوناثان براون والسيدة على مسافة كبيرة على يميننا وكنت مندهشًا لرؤية عدد كبير هكذا من الناس لم أكن أعرفهم . ولكننى تعرفت على البحار الضخم ذى اللحية الحمراء . ودخل رجل يرتدى ثوبًا أسود طويلاً إلى الغرفة ، وجلس على المنصة أمامنا .

كانت المرة الأولى التى أرى فيها أناسًا هنا يرتدون هذا الرداء . وقال الرئيس ، القاضى ، الذى أمامنا كثيرًا من الكلمات التى لم أفهمها تماما ، وعندما وقف السيد براون ليتكلم سرى البرد فى الغرفة كلها .

قال : «هؤلاء الصبية أوغاد . . لقد أخذت الإفريقى والولد الأسود الآخر حيث كانا مع تاجر اسمه چيمس فوستر . كنت أنا وزوجتى نحتاج خدمًا وعمالاً للمزرعة ، لا أعرف شيئًا عن العبيد غير القانونيين ، وأنا لست تاجر عبيد» .

ونظر القاضى من فوق نظارته المستديرة الصغيرة قائلاً :

«هل أعطيت التاجر نقوداً؟»

«نعم . يا سيدى» .

وما الذى كنت تظن أنك تشترى - دقيق ذرة؟

قال براون وهو يوجه عينيه باتجاه تيموثى : « سيدى ، لقد ذهبت فقط لأحصل على خادم بعقد ملزم ، لأننى كنت أحتاج عامل مزرعة» . وقد تركنى التاجر أحل محله فى شراء مدة خدمة الولد الأبيض . وهو صبى ضخم وقوى ، وكنت أحتاج عاملاً فأخذت الولدين الأسودين من دافع طيبة قلبى ، فذلك الصبى سقيم ولا أستفيد منه كثيرًا فى المزرعة ، وأشار إلى چوزيف ؛ والآخر طفل وقد كان همجيّا صغيرًا ولابد أن يتدرب على فعل أبسط الأعمال اليومية ، وقد أخذته ؛ لأن الأطفال الثلاثة كانوا أصدقاء وأبقيتهم معًا لأننى طيب القلب ، وهذا هو جزاء طيبتى . والصبى الأبيض خسيس الأخلاق تماما مثل الوثنيين الأسودين الصغيرين» .

وأخذ جوزيف يسعل بعصبية «إنه كاذب . يا له من رجل شرير» وازداد احمرار وجه تيموثى أكثر فأكثر أمام عينى . . وفجأة انطلق كاللهب يقول : «سيدى ، سيدى الرجل يكذب . لقد كنت هناك وأعرف ماذا قالا!» .

«اسكت» أمسك الشرطى تيم من ياقته . وضرب الرئيس المطرقة على المنصة قائلا «سكوت! سوف تأتى فرصتك للحديث أيها الشاب» .

وقال شيئًا للشرطى الذى أشار إلى القبطان كاف .

أمر القاضى القبطان كاف ، «تعال أمام هذه المحكمة هنا . كيف قابلت هؤلاء الأولاد؟»

«كانوا مختبئين على مركبى الشراعى » .

«وهل أنت تقدم عريضة للمحكمة بالنيابة عن هؤلاء الأولاد؟»

«نعم .فهم يقولون إنهم عوملوا معاملة سيئة ، ويزعم الولد الإفريقى أنه أسير» واستدار القبطان وأومأ ناحيتى ، استمر القبطان في حديثه .

«العبودية مجرَّمة فى هذه الولاية . وأريد أن آخذ الأولاد وأدربهم على فنون الملاحة وبناء السفن» .

نظرت إلى ظهر القبطان كاف العريض القوى وشعرت كأن والدى يحمينى .

«وسوف أعلمهم أيضا القراءة والكتابة وأن يكونوا مواطنين نافعين لهذه الولاية»

«ولكن ماذا عن الطفل الأبيض؟ إنه صبى مُلزم بعقد وقد دفع السيد براون مقابل خدمته لديه» .

«سوف أعيد للسيد براون أى مبلغ دفعه للغلام ، وآخذه هو أيضا ليتدرب عندى» كان براون يحملق أمامه ، وكأنه ليس له علاقة بما يدور فى الجلسة .

قال القاضى وهو يدير وجهًا عابسًا إلى تيموثى : «الآن يمكنك أن تتكلم» .

وقف تيم سريعا وقال : «سيدى أنا كنت هناك عندما اشترى السيد براون كوفى . لقد دفع للتاجر ثمن عقدى الذى حصل عليه التاجر من القبطان ستيوارت الذى هرّب السفينة إلى بوسطن ، كما ترى يا سيدى فالرحلة فشلت وتحطمت السفينة فى عاصفة ومعظم العبيد ماتوا من الجدرى ، وقد أُخذ چوزيف بدون مقابل لأن السيدة ظنت أن چوزيف والإفريقى أخوين وقالت : إن تفريقهما غير إنسانى ، لم يكن السيد يريد چوزيف لأنه رآه سقيمًا ، وأنا كنت خادمًا بعقد للقبطان على سفينة العبيد لمدة أربع سنوات» .

«وكم عمرك؟»

«الرابعة عشرة . وقد أُخذت على السفينة عندما كنت فى العاشرة» .

تنحنح القاضى : «قل لى أيها الصبى ، هل هرّب القبطان ستيوارت عبيدًا من قبل إلى نيو إنجلاند؟»

«نعم» .

وبعد ذلك نادى چوزيف . .

«كيف أصبحت عبدًا لدى القبطان؟»

«لقد ماتت أمى وهى تلدنى على سفينة عبيد»

بدا القاضى متحيرًا «ومن تولى رعايتك عندما كنت رضيعًا؟»

«البحارة والملاحون يا سيدى . وكان أحدهم حنونًا علىَّ جدًا وعلمنى الحروف وقرأ لى فى الكتاب المقدس» .

«هل أنت مسيحى؟»

«نعم» .

«كم عمرك؟»

«ست عشرة سنة يا سيدى» .

وبعد ذلك نظر القاضى إلىّ . . ما اسمك؟

«كوفى» .

«هل تعرف سنك؟» .

«ثلاثة عشر موسمًا» .

«فصلا ؟» .

قلت له «عامًا» حينما تذكرت أنهم فى هذا المكان لا يحسبون الوقت بمواسم المطر والزراعة والحصاد .

«كيف حدث أنك جئت لتعيش مع هذا الرجل؟ » - سألنى وهو يشير إلى براون - .

وكررت قصتى بأفضل ما أستطيع أن أقوله باللغة الجديدة .

«أنت كنت ابن زعيم كبير وخطفت بطريقة غير قانونية؟»

قلت : «نعم . يا سيدى ، وأريد أن أعود إلى وطنى» .

«ولكن ألن تستعبد فى وطنك ؟ أتريد أن تعود إلى أرض الهمجيين البدائيين؟ . ألا تظن أنك أفضل حالاً هنا؟

لم تكن عندى فكرة عما يقصد بالهمجى فقلت له «إن شعبى من الأشانتيين ، وإذا عدت لقريتى فسوف تبتهج أمى وعشيرتى لعودتى» .

سكت الجميع ونظر القاضى من فوق نظارته ووجه حديثه إلى الحاضرين : «هذه قضية غريبة حقًا ، فالإفريقى هربوه إلى هذه الولاية وباعوه ضد القانون . وبالرغم من أن جلب العبيد جريمة فى ماساتشوسيتس فإن التهريب يحدث ، ويباع الفقراء التعساء إلى تجار العبيد فى الجنوب» .

ونظر إلى براون «أنت يا سيد براون قد تدفع غرامة ثمانمائة دولار لشرائك عبدًا فى هذه الولاية وأنت تعلم» شبك القاضى يديه وفكهما ثانية . «فقد صدرت هذه الأحكام من قبل : عندما باعت الولاية عبيدًا مجلوبين ضد القانون إلى الجنوب ، واستخدموا النقود لمساعدة الفقراء فى ولايتنا . كما أننى قد أحكم بتحرير الصبيين الإفريقيين لرعاية القبطان كاف وسوف يكون مسئولاً عن رعايتهما» .

أخذت أصلى للإله نيامى وأجدادى والرب الذى أخبرتنى السيدة عنه أن يلهموا هذا الحكيم المسمى قاضيًا ، والذى يبدو أن له سلطة كبيرة ليقضى لنا بالمغادرة مع القبطان كاف الطيب القلب .

«الإفريقى يزعم أنه مولود حرًا ، ولكن الصبى چوزيف ولد عبدًا ولكن كيف نعرف أن أم چوزيف لم تكن أيضا قد خُطفت ضد القانون؟»

قال القبطان : «هل يمكن أن أخاطب المحكمة؟ ما هى العبودية القانونية؟ العبودية ضد القانون الأسمى . . قانون الله . أنا أؤكد يا سيدى أنه ليس هناك شىء اسمه عبودية قانونية . . هذا تناقض

فى المصطلح » رد القـاضى قـائلاً : «إننى آخـذ وجـهـة نظرك فى الاعتبار يا قبطان ، فهذان الصبيان ليسا من مواطنى فى هذه الولاية أو أية ولاية أخرى . أما الفتى الملزم بعقد فهو مواطن بريطانى ، وإذا وجدنا أنه أسىء معاملته ، فإن العقد يصبح باطلاً وسيعود إلى بريطانيا كمواطن حر» .

ثم وجه الكلام إلى تيموثى قائلا :

«هل هذا ما تفضله؟» .

«حسنا يا سيدى أنا أفضل البقاء هنا ، ولكن ليس مع السيد براون . إنه يضربنا فى الإفطار والغداء والعشاء» .

إذا وجدت المحكمة أن السيد أساء معاملتك ، فعندئذ يمكنك أن تبقى فى هذه الولاية مادمت تجد لك عملاً فتكون نافعا . وأنا متأكد أن صبيّا ضخمًا وقويّا مثلك لن يقابل أية صعوبة فى الحصول على عمل .

وقف براون ، وتمنيت لو معى سهام لأضربه بها .

«سيدى تسمح لى بالحديث؟»

أومأ القاضى بالإيجاب .

ذلك الصبى الملزم بعقد ، وغد كسول . . وإذا سمحتم له بالبقاء هنا فإنى أعرف أنه لن يفعل شيئًا سوى التجول من حانة فسق لأخرى يغنى أغنيات مقابل المشروبات . أما الآخران ـ نظر إلى كابتن كاف ـ فسوف تأسف على أنك أخذتهما . انظر كيف كان ردهم على عطفى . ولن تحصل على يوم عمل جيد من أى منهما . .

والمفروض أن يُصادروا ويُباعوا وتُعطى لى النقود ولزوجتى مقابل المطعم والملبس والمأوى والتعليم الأخلاقى الذى وفرته لهم لمدة عم ، وفوق ذلك فالصبى تيموثى كاذب ، ولم يفهم ما رأى أو سمع . فقد اشتريت عقده من التاجر ، ولم أشتر العبدين» .

نهض تيموثى بسرعة من مقعده وأخذ يصيح «هذا الرجل كاذب وزوجته تعرف أن ما أقوله هو الحقيقة» .

وحذره القاضى «أيها الغلام سوف تخرج من الجلسة» .

وهمس له چوزيف «تيم اسكت وإلا سيظنون أنك وغد» .

ونادى القاضى السيدة براون . وسارت جامدة لمقدمة القاعة ، ووجهها مغطى بقلنسوة كبيرة سوداء .

وسألها القاضى : «هل زوجك اشترى العبدين على علم؟» خفضت رأسها ، وأخذت أصلى لروح والدى ليجعلها تقول الحقيقة مثلما كانت تقول لى دائما .

«كلا . . لم يشتر زوجى عبدين وهو يعلم» وكان صوتها بالكاد مسموعا .

صاح تيموثى : «إنها كاذبة . . كاذبة» .

وأخذت الدموع تنهمر على وجهه الغاضب الأحمر . ونهضت أنا أيضا «لقد اشترونى» أخذت أصيح وأنا أشير إلى نفسى : «اشترونى جميعا» . . . اشترونا جميعًا .

ثم أخذ جوزيف يسعل .

دق القاضى بمطرقته على المنصة ونهض قائلاً : «رفُعت الجلسة» وغادر الغرفة وجذبنا الشرطى والسجان من على مقاعدنا ودفعونا نحو الباب .

قال القبطان كاف الذى سار خلفنا : «يا أولاد . . لن يتعاطف معكم القاضى إذا استمر سلوككم هكذا فى المحكمة . سوف يعيدك يا تيم إلى السيد براون وأنتما يا كوفى وچوزيف سيبيعكما لتجار العبيد فى الجنوب» .

عندما عدنا إلى قاعة المحكمة فى اليوم التالى ، استمعت للقاضى بانتباه وهو يخاطبنا : «ليس هناك دليل على أن جوناثان براون اشترى عبيدًا وهو يعلم . وحيث إن هذه ولاية يعيش فيها أحرار ، فإن هذين الطفلين الأسودين لا ينبغى أن يظلا عبدين ولن تتورط ولاية ماساتشوسيتس مثلما أشار القبطان كاف فى بيع البشر لولايات تشترى العبيد . ويقول السيد براون إنه لم يشتر الطفلين الأسودين لذلك فهما ليسا ملكا له» .

نظر القاضى من فوق نظارته إلى براون قائلاً : «ولكن يا سيدى إذا كنت ترغب فى أن تدفع لهما أجورهما أو تستخدمهما بعقد ملزم لمدة سبع سنوات فسوف يعودان إلى بيتك وتحت رعايتك» .

«كلا» صاح براون بصوت كالرعد : «لقد أنفقت عليهم أكثر من عام ولابد أن يُدفع لى مقابل هذا» .

قال القاضى «إذن فهما حران ليذهبا مع القبطان كاف» وكدتُ أنا وجوزيف أن نقفز من مقاعدنا .

وخاطب القاضى القبطان كاف قائلاً «أنت مسئول عنهما وإذا هربا منك عندئذ سوف يُباعان ويُبعدان من هذه الولاية» . . نظر القاضى إلينا «أنتما لديكما الحرية فى الذهاب مع القبطان كاف» .

نهضنا أنا وجوزيف وتيم وعانقنا بعضنا البعض . وصفق الناس وأخرجت الناى وبدأت أعزف . ودق القاضى بمطرقته وصاح «النظام» وجلسنا ثانية . . كانت الغرفة ساكنة ، وهو يشير إلى تيم ليقف .

وقف تيم ساكنا ، ويداه خلف ظهره ، ونظرة جادة على وجهه ، لم يكن هناك مزاح الآن .

«أما الغلام الملزم بعقد «ونظر إليه ثانية من فوق نظارته ـ لا يبدو لى أنه قد أسيئت معاملتك فأنت تبدو قويا وتأكل جيدا . . لديك مكان تعيش فيه ، وتتدرب لتكون مواطنا صالحا . أنت ملزم بثلاث سنوات أخرى من الخدمة للسيد براون» . شهقنا أنا وجوزيف من الصدمة ولكننى كنت أعلم أنه لن يمكث أكثر من أسبوع ، وتمنيت لو جاء معنا .

وتركنا قاعة المحكمة مع القبطان كاف ولوحنا بالحزن إلى تيم وهو يركب عربة السيد براون . وكانت عيناه الخضراوان المرحتان تبدوان مثل كوبين مليئين بالماء وهو يلقى نظرة أخيرة علينا ووقفنا ننظر إلى العربة ، وهى تسير فى المنعطف بعيدًا عن المحكمة ، لقد شعرنا بافتقاده وتمنيت ألا يضربه السيد براون كثيرًا بالرغم من أنى أعرف أنه بالتأكيد سيصفعه .

قال القبطان كاف : «هيا يا أولاد علينا أن نرحل الآن . سوف نرى صديقكما ثانية قريبا» .

لم تبد المدينة مثل نفس المكان الذى رأيناه من قبل بعد أن انتهى يوم الانتخاب ، كل شىء هادئ والشوارع خالية ونحن ذاهبون إلى رصيف الميناء .

وقفنا – چوزيف وأنا – على ظهر السفينة «صن فيش» نرى الميناء يختفى ، تساءلت ماذا ينتظرنا فى بيت جديد آخر؟!

الفصل الحادى والعشرون

وجه من الماضى

ويستبورت، ماساتشوسيتس

1790

كانت الدنيا لاتزال ظلاما ، عندما وصلت «صن فيش» ديستبورت . ركبنا مسافة قصيرة فى عربة القبطان كاف إلى مزرعته . وبينما كانت العربة تسير عبر طريق يؤدى إلى باب المزرعة الأبيض ، رأيت أول خيوط الشمس المشرقة يشير للطريق إلى بيتى الحقيقى . على الأقل كنت أعرف أننى حر . وبالطبع كان شعورى بالجميل عظيمًا جدًا من أجل هذا .

قفز القبطان كاف من عربته وأسرع نحو بيت أبيض كبير كان يبدو مثل بيت براون . ونزلت من العربة ونظرت إلى النور الذى ينتشر من الشرق . كانت لدى مشاعر طيبة تجاه القبطان كاف ولأول مرة منذ وقت طويل ، لم يداخلنى شعور بالخوف من المستقبل .

لم يكن البيت من الداخل يشبه تلك الغرف الظليلة الكئيبة فى بيت براون . دخلنا غرفة جلوس تملؤها رائحة القهوة والتوابل . وعانق القبطان كاف امرأة قصيرة ذات شعر أسود ناعم . . ومثل والدته كانت من الهنود الحمر ، هذه زوجتى أليس؟ قال وهو يشير إلينا إشارة عابرة : «هذان الصبيان سيتدربان عندى ويعملان معى» .

وابتسمت إلينا بمودة ومدت يدها وقالت : مرحبا بكما فى منزلنا

وجلس القبطان على المائدة ، وأشار إلينا أن ننضم إليه . . يا له من وقت ، ذلك الذى قضيناه فى لين .

أعدت إفطارًا من عصيدة وخبز خرج من الفرن طازجًا ، بينما كان القبطان كاف يروى حكاية مقابلتنا والمحاكمة ، وعندما انتهينا من طعامنا قالت : «مرحبا بالحرية ، لقد أصبح لديكما بيت جديد وأسرة جديدة الآن» .

وظننت أن چوزيف سيقفز على المائدة من شدة فرحته ، فقد كان مثلى فى غاية السرور وقال لها : «شكرًا لكما . شكرًا جزيلاً»

شعرت نفسى بالهدوء وأنا أشكرهما أيضًا ، قال الكابتن وهو يقودنا للطابق العلوى إلى غرفة نوم متوسطة الحجم ، بها مدفأة وفراشان وتسريحة . «لابد أنكما متعبان أيها الصبيان . .»

جلس على الفراش المجاور لفراشى بينما خلعت حذائى «يمكنكما النوم ما طاب لكم من الوقت ، ستقابلان باقى أفراد الأسرة فيما بعد» .

وعندما غادرنا القبطان قلت لجوزيف : « آمل ألا يكون هذا حلما وألا نستيقظ لنجد أنفسنا فى غرفتنا فى بيت السيد براون» .

«طوى جوزيف بنطاله على كرسى . . هذا ليس حلما يا كوفى نحن الاثنان محظوظان» .

وانزلقت تحت الأغطية النظيفة الناعمة ، وقلت : « كم هو صعب على نفسى ألا يكون تيم أتى معنا»

قال جوزيف : «لا تقلق ، تيم يستطيع العناية بنفسه» صعد جوزيف إلى الفراش وتنهد بعمق . . « كوفى هذا أجمل من الحلم ، أصبحت حرًا ، ولدىّ فراش أنام عليه ، كل هذا فى نفس اليوم!» .

على الأقل أنا كان لى يوما أسرة حقيقية ، ولكن جوزيف المسكين لم ير حتى أمه . وفجأة فكرت فى أوبونج لأول مرة منذ شهور عديدة .

فهو أيضا لم يعرف أمه أبدا ، إن هذا فى حد ذاته أسوأ من أى انتقام كان يمكن أن أنزله به «أنا سعيد من أجلنا نحن الاثنين» سندت نفسى على مرفقى وقلت : . «أظن أننا آمنان هنا» .

جاءنى جوزيف فى صوت شخيره المرتفع ، فقد استغرق فى نوم هادئ عميق ونمت أنا الآخر مثله . واستيقظنا فيما بعد فى نفس اليوم وبعد أن ألقينا الماء على وجوهنا من الطست الذى على التسريحة وارتدينا ملابسنا نزلنا إلى الطابق الأرضى . قال جوزيف : «أسمع كل هذا الكلام والضحك! . . لا يبدو هذا مثل بيت براون» .

قلت : «أسمع صوت أطفال صغار» ودخلنا غرفة الطعام وكانت بنات القبطان الصغيرات يتحدثن فى آن واحد . حتى الرضيعة التى تجلس فى حجر والدتها أخذت تقرقر وتناغى فى سعادة .

«مرحبا» قالت إحدى البنات التى كانت فى حوالى السابعة «أنا اسمى ناعومى»

وصاحت الأخرى «وأنا مارى» .

كانت فى حوالى الخامسة أما الابنة الثالثة التى كانت ماتزال صغيرة جدّا على النطق فقد تحدثت لنا بلغتها .

ضحكت السيدة كاف «الذى تقوله هو أن اسمها روث وأن اسم الرضيعة أليس» .

جلس جوزيف بجوارها سألها «كم عمرك يا روث؟» .

ورفعت أصبعين صغيرين جدّا ، وقالت السيدة كاف : « ناعومى نادى فيليس لتقابل جوزيف وكوفى » نهضت السيدة كاف ووضعت الرضيعة فى سلة كبيرة «هذا وقت المذاكرة لفيليس فى

كتابها التمهيدى فقد تعلمت أن تقرأ» وقبلت الرضيعة على خدها وقالت «فيليس هى الفتاة التى أنقذها زوجى من سفينة عبيد» .

سألتها : «زوجك يساعد كثيرًا من الناس أليس كذلك»؟ .

نعم . نحن جماعة الكويكرز نكره العبودية ، وأغمضت عينيها السوداء وهزت الرضيعة وقالت : « لو كان زوجى يستطيع ؛ لأحضر كل هارب من العبودية إلى هذا المكان»

وأسرعت ناعومى إلى غرفة الطعام وعندما عادت مع فيليس ظننت أننى مرة ثانية أتخيل وجوه الذين أحبهم قالت السيدة كاف : «فيليس تعرفى على كوفى وجوزيف»

كان لفيليس عينان مثل قمرين أسودين ، وبالرغم من أنها ارتدت ملابس البيض على جسمها النحيل ، إلا أن عينى وقعتا علي القطعة الذهبية التى تدلت من شريط حول رقبتها . لقد كانت التمثال الذهبى الذى أعطاه أبى لى .

«كوفى؟» .

تجمع الأطفال وجوزيف والسيدة كاف حولنا بفضول ، يشاركوننا فرحتنا ، تصافحنا ونحن نضحك ونبكى فى نفس الوقت وفى البداية انعقد لسان كل منا عن الكلام ، بعد أن تملكتنا مشاعر جياشة وعندما حلت عقدة لساننا تحدثنا سويًا .

سألتها «هل اتخذت اسما جديدًا؟»

أجابت : «نعم اتخذت اسما من هذه اللغة ولكنى لا أزال آما ، انظر أنا لم أنس لغتى بالرغم من أنى تعلمت لغة جديدة .

سألتها : «كيف جئت إلى هنا؟» .

«هربت من شـابو فلم أكن أريد أن أتزوج ابنه ، وقـد أعطيـتنى الأمل فى أن أجد طريقى إلى بيتى وقد وجدنى شابو وباعنى إلى آبو نفس الرجل الذى كان معه شقيقك» .

«هل رأيت كويسى؟»

«كلا ولكن إحدى الفتيات التى كانت أسيرة مثلى أخبرتنى أن شابا اسمه كويسى كان هو الوحيد الذى لم يكن مقيدا كالحيوان وقبل أن أصل إلى هناك ببضعة أيام جاء شـقيقه ليأخذه لقد تحدثت كثيرًا عن ذلك الشاب الأشانتى الوسيم الذى جاء مع الخدم والحرس ليخلص أخاه» .

قلت : «ذلك الشاب هو أخى إنتيم ، لابد أن آبو أو آتا قد أرسلا إلى أسرتى وعرفوا ما حدث» أغلقت عيناى وتذكرت كل أحبائى أصبحت الآن مطمئنًا ، فكويسى كان فى أمان وأسرتى عرفت أن الوالد ومانو قد ماتا وأننى أخذت أسيرا . استرسلت آما فى سرد ما حدث لها :

«باعنى «آبو» إلى رجل أبيض وأخذونى على سفينة العبيد أرسلونى إلى هنا كان شيئًا فظيعًا ، وكثير من الناس ماتوا فى قاع السفينة المظلم ذى الرائحة الكريهة وهربونا إلى هنا وقبضت سلطات هذه الولاية على السفينة . ووجدنى القبطان كاف أبكى وأرتجف بين الناجين الآخرين وكانوا سيبيعوننا فى مكان آخر من هذه البلد ولكن السيد كاف سمحوا له أن يحضرنى هنا ؛ لأعيش مع أسرته يا كوفى وقد عاملونى كأننى ابنتهم فعلا» .

قاطعت السيدة كاف حديثنا «هل أنتما أخوان؟» .

فأجبت «كلا ولكن كأننا كذلك معذرة يا سيدتى للتحدث بلغتنا لم نقصد أن نكون غير مهذبين» .

وأشـارت إلينا لنجلس «أنا أفـهم فـعندمـا أكـون مع أهلى فنحن نتحدث لغة أجدادنا نحن أيضا» .

وروينا أنا وآمـا وجـوزيف حكايتنا للسيـدة كـاف . قلت عندمـا انتـهيت من حكايتى ، كنت «دائمًا» أدعو أن أرى آما ثانية ، وقـالت وهى تتـحـسس الـدلاية الذهـبـيـة : «وكنت أدعـو أنا أيضـا أن أراك ثانيـة» قـالـت وهى تتحـسس السـبيكة : «كنت أتذكـر الدرس الذى تقوله السبيكة ، ولا أفكر فيمـا حدث وانتـهى . هؤلاء الناس طيبون يا كوفى وسنكون جميعا آمنين وسعداء هنا» .

تذكـرت أنا أيضًـا الدرس الذى يعنيـه التـمـثـال الذهبى وبينمـا كنت أنظر حـول المائدة على السـيـدة كـاف وبناتهـا وجـوزيف وآمـا فـهـمت لماذا أنه لا طائل من الندم والأسف ـ فـهـو يصـرف عـقلك وقلبك إلى ما لا ينبغى التفكير فيه ويمنعك من العيش فى الحيـاة فى الحاضر وعرفت فى تلك اللحظة أننى صرت رجلا حقًا .

دخل القـبطان كـاف الغـرفـة وحـمل الرضـيـعـة فى يديه ، بينمـا حامت حوله ناعومى ومارى تقولان له : إن آما وأنا كنا نعرف بعضنا البـعض فى الماضى وبينمـا كنت أنظر إليـه وهو يسـتـمع باهتـمـام إلى حكـايتنا هتف علىَّ طيف والدى ، كـان القـبطان كـاف مـثل والدى زعيما عظيما واتخذت قرارا عندئذ أننى أنا أيضا سأكون زعيما كبيرا مثلما كان والدى كوامى ومثل والدى الجديد أنا أيضا سأحارب ضد العبـودية وأفتح بيتى وقلبى لـكل الرجال والنسـاء تعسـاء الحظ الذين سقطوا فى العبودية وهكذا لم تكن محن حياتى هباء .

لـم أعد أشعر بالأسف .

الخاتمة

سيراليون

غرب إفريقيا

مارس «آذار» 1811م

نحن قريبون جدًا من الساحل ، حتى إننى أستطيع أن أرى أشجار النخيل مصطفة على الشاطئ ، أرى أيضًا على ما يبدو عديدًا من السفن أُسرت وأدينت من قبل البريطانيين الذين جرموا تجارة العبيد فى أرضهم . وتذكرت بالتحديد منذ 23 عاما ، عندما أخذونى فى القارب إلى بيت الرجل الأبيض العائم . إننى الآن أقود بيتًا عائمًا .

وبينما كنت أنظر وراء أشجار النخيل نحو الداخل الذى لا أستطيع رؤيته ، تخيلت القرية الأشانتية أيام صباى . ولكننى لن أحاول الوصول إليها ، فعندما أكمل هذه الرحلة إلى سيراليون ونفرغ الحمولة سوف أعود إلى ماساتشوسيتس ، لأن ذلك هو وطنى الجديد الآن مع زوجتى الحبيبة آما وأطفالنا وجوزيف الذى أصبح أخًا لى لقد كرَّسنا أنا وجوزيف وآما حياتنا لمساعدة الهاربين من الأسر ولايزال هناك الكثير مما ينبغى أن نفعله . إن قريتى الأشانتية تعيش فقط فى قلبى .

كلمة للمؤلفة

هذه القصة بكل تفاصيلها من وحى الخيال ، إلا أن أحداثه مستوحاة من حياة «أولاوده أيكويانو» أو «چوستاڤوس ڤاسـ الإفريقى وهى القصة الحقيقية التى كتبها ڤاسا عن حياته .

لقد شدنى أسلوب السرد الذى كتبه رجل عاش فترة صبـ الأولى فى إفريقيا ، قبل أن يخطفوه ويبيعوه ليصبح عبدًا . إن رواية تجعل القارئ يفهم ويشعر بالحال التى يكون عليها الإنسان تحـ قيد العبودية ، كما أنها تظهر ذكاء ڤاسا وقوته وحساسيته ، وهـ جزء من شكل أدبى أمريكى مميز - لسان حال العبد - نتا التجربة الإفريقية الأمريكية .

إن رحلة كوفى إلى الساحل ، وخوفه وفضوله على سفينة العبيـ وعندما يدخل بيتا فى بوسطن ، ووصف «آما» للغارة على قريتها جميعها مبنية على حكاية ڤاسا .

أما بول كاف ؛ فهو شخص حقيقى ولد فى ماساتشوسيتس فـ السابع من يناير «كانون الثانى» 1759 وكان والده كوفى سلوكا إفريقيًا استعبد عندما كان فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمر تقريبًا . وقد اشترى حريته عندما أصبح فى الخامسة والعشريـ تقريبًا وتزوج راعوث موسى ، وهى من السكان الأصليـ الأمريكيين .

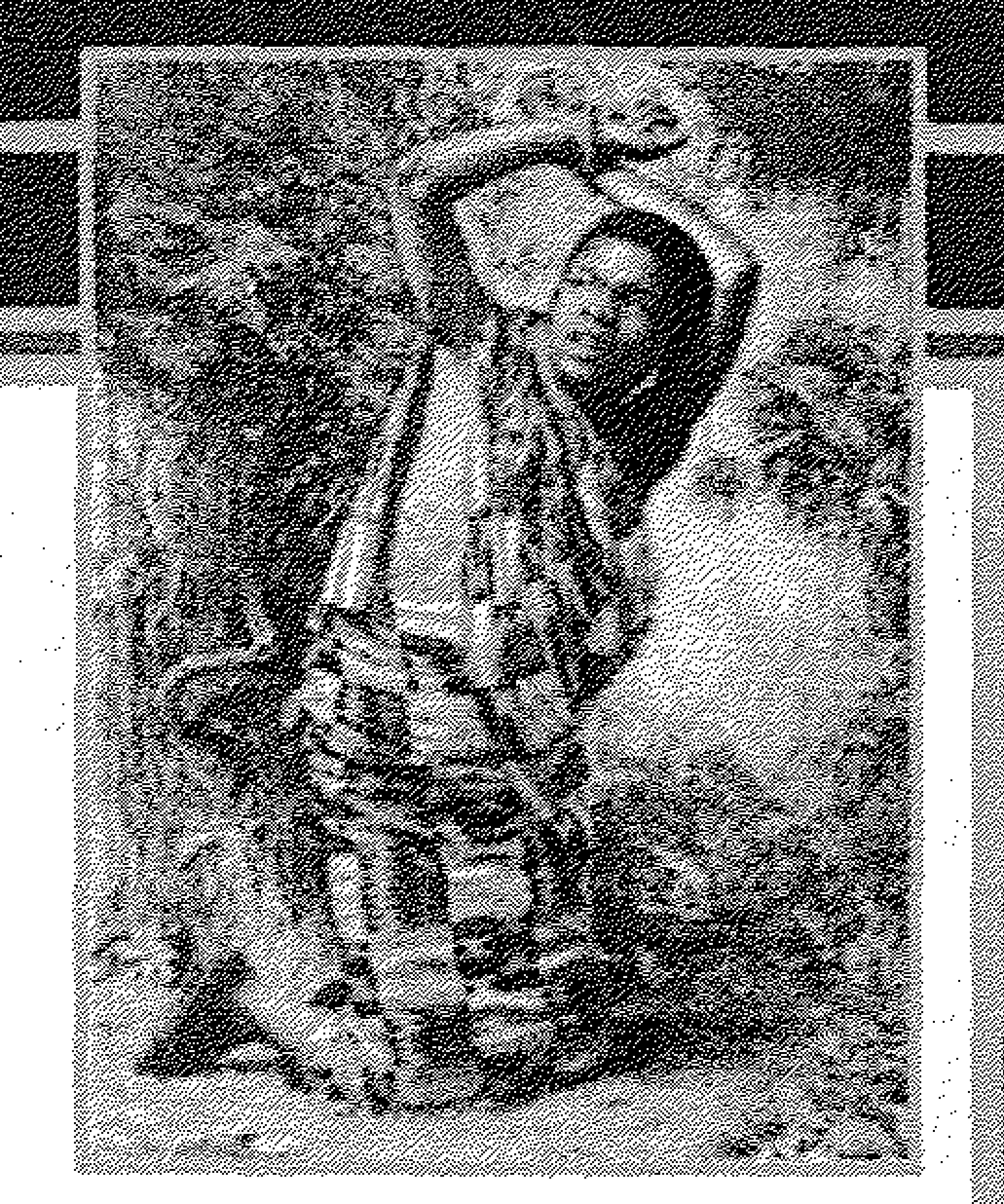
وبالرغم من العنصرية والقيود التى كانت على السود ، إلا أن بول كاف صار تاجرًا ثريًا وقبطانًا بحريًا . ومع طاقمه الذى ضم رجالاً من السكان الأصليين المولودين فى أمريكا من ذوى الأصول الإفريقية ، وأخذ دقيقًا وخبزًا وحبوبًا ولحم البقر وسلعًا أخرى إلى إفريقيا ، ونقل ، وتاجر فى بضائع فى ماساتشوسيتس ، فيلاديلفيا ، ديلاوير ميريلاند والبحر الكاريبى . كان كاف رجلاً متدينًا ، من طائفة «الكويكرز» ، التى كانت ضد العبودية . وفى عام 1811 ارتحل إلى سيراليون ، الواقعة فى الساحل الغربى من إفريقيا من أجل أن يستكشف إمكانية تشكيل مستعمرة من السود الأمريكيين ، الذين كانوا يريدون العودة إلى إفريقيا . وقد مات كاف فى ويستبورت عام 1817 بماساتشوسيتس ، دون أن يتمكن من تحقيق حلمه بالمستعمرة الإفريقية .

ازدهرت إمبراطورية الأشانتى فى الفترة من القرن السابع عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر ، فيما يعرف الآن بغانا وأجزاء من ساحل العاج وتوجو ، وقد كان مهما أيضًا بالنسبة لى أن أوضح أن الإفريقيين الذين جاءوا للعالم الجديد ، قد أحضروا معهم ماضيًا حضاريًا ثريًا .

نبذة عن المؤلفة

نشأت چويس هانسن فى برونكس بمدينة نيويورك حيث تُدرِّس حاليا الكتابة الإبداعية لتلاميذ المرحلة المتوسطة . وقد أظهرت قصصها السابقة ، مثل «مانح العطايا» و«الطائر الأصفر وأنا» ، و«الصديق» ، مقدرتها فى الوصول إلى عقول وقلوب الشباب من القراء . وقد فازت قصتها «أى الطرق يؤدى للحرية؟» بجائزة «كوريتا سكوت كينج» وتعتبر القصة التالية لها «خارج هذا المكان» ، من بين رواياتها التاريخية للشباب ، وتعيش السيدة هانسن مع زوجها ، عازف الموسيقى ، فى نيويورك .


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨



Kofi Was a Prince, Now he is ...

THE CAPTIVE

فقـد وطنـه وعائلتـه بـل وحتـى نفسـه

فقـد أصبح

الأسـير

كان من المفترض أن يكون يوم ابتهاج واحتفال، يوم تشريف وتوقير
وبدلاً من ذلك، كان ذلك اليوم يوم خداع وأكاذيب وأسر. إنه اليوم الذ
أصبح فيه «كوفى» عبدًا. وقبل أن يعرف ما جرى وُضِعت يداه وقدما
فى السلاسل وأُجبر على صعود باخرة لتحمله من وطنه... ذلك المكا
الذى أدرك أنه قد لايراه مرة أخرى.

«الأسير ـ القصة التى ألفتها هانسن بتدقيق الباحث ـ قصة تفت
العينين وتقدم منظورًا إفريقيًا يحرك المشاعر عن الظلم والقهر اللذين كا
سمة الحياة الأمريكية فى السنوات الأولى من بناء أمريكا وإلى الآن».

مجلة الناشرين الأسبوعي

«... قصة مشوقة للقراء ومليئة بالمفاهيم».

«قصة البقاء... وهى قصة محبوكة تفرض نفسها
خلال عرض ثقافتين من كتب وتقدم وصفًا فريدًا للعبو
من قاسى مرارتها».

م

